

فصل السابع

تاريخ العرب الثقافي

في عهد آل عثمان

- موقف آل عثمان حيال الثقافة بوجه عام :

رافقت حكم المماليك بمصر والشام حركة علمية أدبية توافرت خلالها المدارس والمكتبات والمؤسسات الخيرية ، فضلا عن التأليف الدينية واللسانية ، وكانت هذه الحركة براقة جدا ، حتى يكاد المشرف عليها يتوهم أن بعثا جديدا قام في البيئات العربية .

ولكن إذا ضاع الحظ فالكوارث تخلفه آخذا بعضها برقاب بعض . فإن حملة جديدة أخذت تتدفق بعد المغول من أقصى الشرق أيضا ، فتغمر العالم العربي ، وتجعله نسيا منسيا ، وكان قوام تلك الحملة الترك ، الذين انبثقت منهم سلطنة آل عثمان .

هذا ، وكانت اللغة العربية حتى ذلك العهد لا تزال لغة العلم والسياسة ، فعدلت عنها هذه السلطنة إلى اللغة التركية ، فأودت بكنوز العرب العلمية ، وألقها في زاوية من الإهمال .

كان المفروض في آل عثمان الذين أتبع لهم أن يخلفوا العرب على الشرق الأوسط ، وتسنى لهم أن يقوموا على أنقاض البيزنطيين ، أصحاب قسطنطينية وما حولها ، كان المفروض فيهم أن يستثمروا مخلفات هاتين الأمتين ، ويسيروا على أقل تقدير في مواكب الحضارة الحديثة التي برزت في عصرهم الذهبي .

ولكن آل عثمان لم يكونوا على استعداد للمحافظة على ذينك التراثين العليين : تراث الماضي وكنز الحاضر ؛ كما أن الأحوال السياسية صرفتهم عن كل شيء آخر غير القوة العسكرية ، طوال حياة بدأت بالهجوم وانتهت بالدفاع .

ونحن مع ذلك لا ننكر أن المؤسسين من سلاطين آل عثمان حاولوا التشبه بالخلفاء والملوك السابقين ، من حيث تقريب أهل العلم وإنشاء المدارس ، فضلا عن أن بعضهم كان على حظ وافر من العلم والأدب . فأورخان (١٣٢٦ — ١٣٦٠ م) وهو ابن عثمان مؤسس السلطنة ، اتخذ العلماء أهل شوره ، وعهد إليهم في إدارة المدارس التي افتتحها ، وأشهرها في أزيق . ثم لما استتب الأمر للجاي محمد (١٤١٣ — ١٤٢١) انصرف للحناية بالعلم عنايته بالعمران ؛ وكان عربشاه السورى في جملة العلماء اللامعين بين حاشيته . وجرى مجراه مراد الثانى (١٤٢١ — ١٤٥١) وكانت « بورصة » قاعدة الدولة في أيامه ، تعتبر كقاعدة للعلم أيضا في الشرق الأدنى .

وأما محمد فاتح القسطنطينية (١٤٥١ — ١٤٨١) فقد قال عنه درابر : Drapper (H^{ic} intellectuel de L'Europe) : كان يتكلم بخمس لغات ، فضلا عن معرفته العلوم الرياضية ، وهو قد أحيا في القسطنطينية عصرها الثقافى ، بما أنشأ فيها من المدارس ، ونخص بالذكر منها « دار الفنون » . على أن عنايته بالعلم لم تقتصر على قاعدة الدولة ، بل تعدتها إلى « بورصة وأزيق وأدرنة » ، وكان كل منها حافلا بجمهور من أهل الفضل .

وكان السلطان سليم الأول (١٥١٢ — ١٥٢٠) شاعرا ، وله آثار في اللغات التركية والفارسية والعربية ، وما إن فتح مصر والشام فالعراق ، حتى أخذ ينقل إلى بلاده المؤلفات العربية ، ويستقدم الأدباء والعلماء والصناع ، ثم قدر لابنه السلطان سليمان (١٥٢٠ — ١٥٦٦) أن يبز أباه في الشهرة ، ولقب بالقانونى لوضعه قوانين الدولة ونظمها .

بيد أن السلطنة أخذت تتدهور بعد هذا السلطان ، وتترغم في حياة مزقتها الكوارث ، فانطوت على نفسها ، وأصبحت على حال من الحذر جعلها ليست بعيدة عن مجارة أوربة في تمدنها فحسب ، بل تتجنب كل شئ يصدر عن الغرب .

وهكذا ، نجد أن الأمصار العربية التي كانت مباءة العلم وأهله قبل آل عثمان ، أُمست في عهد مؤلام في عزلة عن النهضة العالمية الحديثة مدة أجيال ، وهي لا تحتفظ من تراثها الثقافي إلا بالعلوم اللسانية والدينية ، ولا تستبقى من مدارسها الكثيرة إلا حلقات المساجد ، وكتاتيب تعمل أسماء مدارس . وأما أموال الأوقاف التي حبست على معاهد العلم والمؤسسات الخيرية ، فقد أصبحت نهبا للبتنفذين . ولولا بعض المعاهد الدينية كالآزهر في مصر ، والقرويين بفاس ، والزيتونة بتونس ، والأعظم بالقبروان ، والأموى بدمشق ، ولولا كربلاء والنجف وسامرا في العراق ، هذه المعاهد التي قدر لها أن تحتفظ بشيء من أوقافها ، لدرست الآداب العربية في تلك العصور المظلمة ، واندثرت معها تعاليم الإسلام .

على أن الانحطاط شمل مع ذلك ما تبقى في ديار العرب من العلوم الدينية واللسانية ، فصاروا في الناحية الدينية ، يرجحون الغريب السخيف ، على المحقول والموزون ، وأمسوا في الناحية الأدبية يختارون المحاسن اللفظية ، دون المعاني والفنون . أما تأليف ذلك العهد فكانت تحوم حول الكتب القديمة ، فتعتمد إلى تطويل ما كان منها موجزا ، واختصار المسهب ، وفي الحالين كانت شعلة الفكر منطفئة ، لا نار فيها ولا نور .

ومن مشاهير ذلك العهد المؤلف الشهاب أحمد الخفاجي المصري (١٠٦٩هـ - ١٦٥٨م) والشاعر ابن النحاس الحلبي « ت ١١٥٢هـ = ١٦٤٢م » والأديب عبد القادر البغدادي « ت ١٠٩٣هـ = ١٦٨٣م » صاحب كتاب خزانة الأدب .

وأما الشعب فقد أمسى أميا على وجه عام ، وإذا أتيح لواحد منهم أن ينال نصيبا من علم أو أدب تقلد دوائه المستطيلة في صدر حزامه العريض ، ومشى مباهيا يترقب أن يشار إليه . وقد روى لنا أسلافنا أن الأمية استحكمت في بعض المدن العربية ، ومنها بلدنا بيروت ، إلى حد أن تجارها كانوا يعتمدون

في كتابة رسائلهم ، وتسجيل حساباتهم على نثر قليل ، قدر لهم أن يقرءوا ويكتبوا ، وأن يمتحنوا هذه المعرفة . ولكن بحثا جديدا شمل العالم العربي منذ القرن التاسع عشر ، وأخرجه من هذه الظلمات إلى النور ؛ وهذا ما سنحاول عرضه بكلامنا التالي .

ب — تطور مصر الثقافي في عهد آل عثمان :

(١) لما تطلب الأيوبيون على مصر (٥٦٧ هـ = ١١٧١ م) حرص السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب مؤسس الدولة ، على مكانة مصر العلمية ، التي كان الأزهر محورها ، فعزيزها بالمدارس ، وحذا حذوه خلفاؤه ، فكثرت المدارس على عهدهم ، وقام بالتدريس فيها بعض أعيان العلماء ، كابن زين النجار الشافعي ، والشريف القاضي شمس الدين بن محمد الحنفي ، وقاضي القضاة أبي علي الحسين المالكي ، والإمام أبي محمد الشاطبي ، وتلميذه أبي محمد بن عمر القرطبي ، وغيرهم من جلة العلماء وكبارهم .

وكانت تلك المدارس تعنى بعلوم الدين واللغة ، ولا سيما فقه المذاهب الأربعة ؛ فانتقلت بذلك حركة التعليم من أبنية جامع الأزهر إلى تلك المدارس ، وأصبحت منهل العلوم في ذلك العصر .

غير أن الأزهر استعاد مكانته في عهد المماليك البحرية ، الذين خلفوا الأيوبيين على مصر ، فجدد الظاهر بيبرس البندقداري مذ تولى الحكم (٦٥٨ هـ = ١٢٦٠ م) شبابه ، وأعاد إليه نشاطه العلمي ؛ وسار على أثره ملوك وأمرء جاءوا من بعده ، فكانت نهضة مباركة ، حملت العالم الإسلامي - بعد سقوط بغداد في حوزة المغول ، وإتلاف كتبها وذخائرها العلمية - على الاتجاه بأنظارهم وأفئدتهم شطر مصر ، وخصوصا أنها قد أصبحت قاعدة الخلافة العباسية ، بعد الكارثة المغولية التي حاقت بالعراق .

وأصبحت مصر بأزهرها المثابة المرجوة للسلمين ، وكانوا يقصدونها ، طلب العلم من جميع الأقطار ، حتى إذا دخلها السلطان سليم العثماني فاتحا ، أصابها ما أصاب الأمصار العثمانية من الفوضى والاضطراب ، وأضاعت من جراء ذلك عمراتها وعلومها وفنونها ، وخسرت ذلك الازدهار الذي كان يتمتع به الأزهر ، ولا سيما في عهد المماليك البكوات المظلم . وقد زار الرحالة فولني Folney مصر أواخر القرن الثامن عشر ، فلم يتمالك عن الإعراب عن عجبته ، للجهل الشامل الذي كان يحيق بها في كل طبقة من طبقاتها .

(٢) على أنه لو أتيح لهذا الفيلسوف الفرنسي أن يعود لمصر بعد نحو ربع قرن من وضع كتابه ، لارتاب في صحة مادونه عن هذا القطر الشقيق . فقد عرضت وقتئذ مفاجآت سياسية سرعان ما عملت على إخراج وادي النيل من عزلته ، وألقت في رحابه أسس النهضة الحديثة .

ذلك أن الحملة التي ساقها نابليون الأول على مصر ، لم تكن ذات صبغة عسكرية فحسب ، بل كانت في الواقع حملة علمية بما رافقها من بعثات علمية وفنية ، وبما وضعته من مشروعات مختلفة . حملة علمية اكتسحت الشرق الأوسط ، وصوبت سهامها إلى الفساد الذي كان يغشى بصره وبصيرته ، فتراجع الجيش الفرنسي ، ولكن هذه الحملة العلمية لم تتراجع . وكان في في عداد المشروعات التي قامت بها : المكتبة العامة ، ومدرستان لأولاد الفرنسيين ، وجريدتان باللغة الفرنسية ، فضلا عن مسرح للتمثيل ، وجمع علمي مصري .

ولما تولى مصر محمد علي باشا رأس الأسرة العلوية (١٨٠٥م) ، وسمت نفسه إلى الاستقلال ، صرف همه إلى الجند وتنظيمه على الأساليب الحديثة ، التي لمس فوائدها خلال الحملة الفرنسية على مصر ، فأنشأ المدرسة التجهيزية الحربية (١٨٢٥) ، وافتتح المعهد الطبي إلى جوار المستشفى العسكري بأبي زعبل

(١٨٢٧) ، وعمد إلى إرسال بعثات الطلبة لأوربة . وما إن عاد هؤلاء إلى وطنهم ، حتى خضوا إلى تأليف مجلس خاص بالمدارس ، كان من مآتيه إنشاء مدارس ابتدائية وثانوية في أنحاء القطر ، على المناهج الفرنسية ، ثم لم تمض سنون حتى أصبح عدد هذه المدارس سبعين مدرسة ، بينها ست عشرة مدرسة كبيرة ، بلغ عدد طلابها تسعة آلاف تلميذ ، وكانت اللغة العربية هي لغة التعليم الأولى .

وزيادة على ذلك قد جعل محمد علي باشا الأزهر موضع عنايته ، وقرب إليه عاباده ، واختار من طلبته النواة الأولى لمدرسته الطيبة . ولما أرسل البعوث إلى فرنسا كان فيها شيوخ أزهريون ، ومن بينهم رفاة بك ، ذلك العالم الذي أفاد المصريين بعد عودته بالتأليف والترجمة . وكما أن اهتمام محمد علي باشا بالجند حمله على إقامة المدارس لهم والمستشفيات ، وعلى إنشاء المعامل التي تعد العدد للجيش ، كانت الرغبة في الإصلاح العام حافزا له على إحياء ما تعطل من المشروعات النابليونية ، وفي عدادها المطبعة والصحيفة .

وظلت مطبعة بلاق التي أنشأها محمد علي باشا من كبريات المطابع في الشرق العربي ، وأصدرت كتباً قيمة في فنون شتى ، أكثرها ترجمات عن اللغات الأوربية .

كما أن جريدة الوقائع المصرية التي أصدرها سموه (١٨٢٨ م) كانت من أوليات الصحف العربية وأمهاتها .

ولما أفضت ولاية مصر إلى ابنه إبراهيم باشا ، توقع الناس إصلاحا كبيرا ، كان سموه قد أعد العدة له إثر رحلته إلى أوربة ، ولكن الأجل عاجله قبل تحقيق العمل . ثم نكب التعليم بعده خلال ولاية عباس باشا الأول ، لأن هذا الأمير أقفل المدارس ، ولم يستبق منها إلا واحدة لتخريج ضباط البر والبحر ، وجرى مجراه سعيد باشا ، وما زالت المدارس معطلة

إلى ولاية إسماعيل باشا . هذا ما روى بنص المؤرخين المصريين ؛ ونحن نشك في صحته ، وخصوصا أنه قد جاء في تقرير مستر كليف الذي انتدبته لندن لدرس مالية مصر في عهد الخديو إسماعيل ، ما يفيد وجود ١٨٥ مدرسة بمصر سنة ١٨٦٢ م .

أما البعثات العلمية لأوربة وإن ضعف شأنها في عهده ، فلم تلغ قاطبة ، بل إن حكومة مصر أرسلت ستا منها في حكم عباس باشا الأول ، وثلاثا في ولاية سعيد باشا .

وظهرت خلال هذه المدة المطبوعة الأهلية القبطية ، وهي أولى المطابع الخصوصية بمصر ، وكان إنشاؤها دليلا على بواكير نهضة تنبثق من صفوف الشعب . وصارت الولاية لإسماعيل باشا (١٨٦٣) ، وليس بمصر إلا أربع مدارس : ابتدائية ، وثانوية ، وحربية ، وطبية صيدلية ، وهي في مجموعها على حالة سيئة . وكان إسماعيل باشا قد ورث عن جده مؤسس الأسرة المطامع الرامية إلى إنشاء كيان دولة مستقلة . نخب مثله إلى تعزيز كيان حكمه بالجنودية ، معنيا بإنشاء المدارس العسكرية والفنية والطبية ، على أحدث الأساليب ، واهتم بنشر التعليم الشعبي ، وذلك بإنشاء كتاتيب أقامها في كثير من النواحي ، فضلا عن دار العلوم التي أسسها سنة ١٨٧٣ . وكانت الحكومة في عهد محمد علي وإسماعيل تأخذ على عاتقها كسوة التلاميذ وإطعامهم ، وتعطيهم مرتبات لنفقاتهم الخاصة ؛ ولما عاينت الإقبال على المدارس ، واعتزمت افتتاح المدارس الخارجية ، فرضت على أوليائهم أجورا تقدر بقدر حال كل منهم .

ورأى الخديو إسماعيل إقبال بنات مصر على مدارس الإرساليات الدينية ، فسارع إلى فتح مدرسة للبنات سنة ١٨٧٣ م ، كان الإقبال عليها مشجعا له على فتح قسم للعمليات ، وعلى فتح مدارس غيرها في سائر الأقاليم .

والمقتضى جغرافية فكرى ، بلغ عدد التلاميذ سنة (١٢٩٢ هـ = ١٨٧٥ م) أى أواخر ولاية إسماعيل باشا : ١٤١٩٧٧ تلميذا ، والمدارس والكتاتيب : ٨١٧ مدرسة ، والمعلمين ٦٠٤٦ معلما . وهذه الأرقام توافق ماورد فى تقرير مستر كليف المشار إليه . غير أن مستر كليف يروى أن هذه الأرقام إنما كانت تقتصر على المدارس القائمة على التنظيم الأوروبى الحديث .

ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن المستوى العام للتعليم وقتئذ كان مرضيا فى المدارس الحربية ، وأما فى غيرها فكان دون الوسط ، ومرد ذلك إلى أن السواد الأعظم من المعلمين كان من الأزهر إبان انحطاطه . غير أن هذا المستوى أصابه شئ من التحسين من جراء إنشاء دار العلوم سنة ١٨٧٣ م ، ثم بإنشاء مدرسة المعلمين والمعلمات فى مطلع ولاية توفيق باشا سنة ١٨٨١ .

هذا ، وقد أراد إسماعيل باشا وضع حد للفوضى والارتباك اللذين أصابا الأزهر فى ذلك الحين ، فأصدر (١٢٨٨ هـ = ١٨٧٢ م) قانونا نظم فيه طرق نيل الشهادة العالية ، ولكن على الرغم من ذلك بقى التعليم فى الأزهر مقصورا على العلوم الدينية والعربية ، وعلى قليل من الهيئة والمواقيت .

على أن إسماعيل باشا أعار اهتمامه الكثير البعثات العلمية ، فأرسل ١٧٢ تلميذا لأوربة ، وأنشأ المكتبة الخديوية (١٨٧٠) . وفى نفس الوقت سهل للأجانب الإقامة بمصر ، وإنشاء مدارسهم التى أمدوها بالمساعدات ، فضلا عن ترحيبه بأدباء سورية ، ومكافأته مشاهيرهم ، سواء منهم من هاجروا إلى مصر ، أو من تخلفوا فى بر الشام ؛ فحفل عهده بنهضة أدبية ، حملت المدارس والمطابع ألويتها ، ونطقت الصحف والمؤلفات بلسانها .

ثم أقيل الخديو إسماعيل ، وولى ولده توفيق باشا (١٨٧٩ م) غير أن النهضة ظلت على ازدهارها بقوة الاستمرار ، وقد احتل الإنكليز مصر خلال ذلك على أثر الحوادث العرايية ، ومدارس مصر ما برحت على ازدياد ، وتلاميذها مازالوا على توافر ، وكان أشهرها مدرسة المعلمين والمعلمات ، ومدرسة القصر العيني . وقد أحصى اللورد دفرين (١٨٨٢ م) المعاهد العلمية التي كانت قائمة حين دخول الإنكليز ، فكانت كما يلي :

(١) جامع الأزهر وفيه ٨٠٠٠ طالب للعلوم الدينية وآداب اللغة العربية .

(٢) المدارس الأجنبية وعددها ١٥٢ مدرسة ، وفيها ١٢,٢٤٧ تلميذا ، ويتمتع بعض هذه المدارس بمنح حكومية .

(٣) المدارس الحكومية ، وهى ٥٢٧ ابتدائية ، وفيها ١٣٧,٥٥٣ تلميذا ، و ٢٧ ثانوية ، وفيها ٤,٦٦٤ تلميذا . فضلا عن مدرسة تجهيزية بالقاهرة ، و ١١ مدرسة للفنون والمهن ، واحدة منها للبنات .

(٤) لم يتورع اللورد كرومر عن المجاهرة بأن مهمة الحكومة ليست ترقية التعليم ، ولا رفع مستوى العلم ، ولكنها تنحصر فى إعداد الموظفين الذين تحتاج إليهم لإدارة شئونهم .

تلك كانت سياسة الإنكليز فى حقل المعارف مذ احتلوا وادى النيل ، ووراء هذه الغاية وقفوا تيار الروح العلمى الذى كان يحتاج مصر فى عهدهى إسماعيل وتوفيق . واستعانوا على ذلك بوسائل سلبية وإيجابية ، وبينما ذلك فى الجزء الأول من كتابنا «قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور» ، وقد عمدوا إلى الأساليب التالية فى سبيل تحقيق هذا المطلب :

(١) تعطيل مدارس الحكومة الحربية والفنية .

(٢) إهمال التعليم الابتدائى والثانوى .

(٣) إبطال المجانية فى التعليم .

- (٤) إهمال اللغة العربية .
- (٥) وقف البعثات العلمية لأوربة .
- ومن جهة ثانية قاموا بما يلي :
- (١) تشجيع المدارس الأجنبية ، ولا سيما الأنكلوسكسونية .
- (٢) تنشيط الإرساليات الدينية .
- (٣) ترويج الصحف الموالية لهم ، لاستخدامها في الدعاية .
- هذا ، وربما أن الأزهر لم يسلم من هذه السياسة البريطانية في الناحية التعليمية ، وأن الفوضى التي كانت مستحكمة فيه حملت بعض أهل الخبرة على التفكير في طرق إصلاحه ، ومطالبة الحكومة بهذا الإصلاح . وقد استجابت لهم ، وأصدرت قانون سنة ١٨٩٦ القاضي بإضافة مواد جديدة للدراسة في هذا المعهد . وقام على تنفيذ هذا القانون مجلس إدارة يضم طائفة من العلماء ، ثم انتثر عقد هذا المجلس بخروج الشيخ محمد عبده منه ، ثم بوفاته سنة ١٩٠٦ ، وعاد الأزهر لقديمه .
- وكان الحكومة نفضت يدها من الأزهر منذ بداية القرن العشرين ، فأصدرت سنة ١٩٠٧ قانونا يقضى بإنشاء مدرسة القضاء الشرعي . وإذا بالأزهريين يستيقظون ، وإذا بهذا الحدث يحملهم على الاجتماع والمطالبة بإصلاح معيهم ، وإسناد الوظائف الشرعية لمخرجيه .
- وإن الحكومة التي اتخذت موقف المعارضة في البداية ، لم تجد بدا آخر الأمر ، من مراعاة أمانى الأزهريين ، فأصدرت سنة ١٩١١ قانونا لتنظيم الأزهر ، على مثال مدرسة القضاء الشرعي ، ومدرسة دار العلوم .
- ويرجع نجاح الأزهريين في استصدار هذا القانون الذي وضع أسس الإصلاح ، إلى التطور الاجتماعي الذي أصاب وادى النيل إثر استفحال الثروة فيه ، ذلك التطور الذي كان جزءا من عناصر النهضة العالمية . فما إن قيض لمصر وزير للمعارف كفؤ سنة ١٩٠٨ ، وأعنى به سعد زغلول باشا ،

حتى صمد في وجه السياسة البريطانية . فإذا به يعيد إلى اللغة العربية سابق مكانتها ، ويجعلها لغة التدريس في الابتدائية والثانوية ، ويرجع للبعثات شيئاً من رونقها ، ولما قفل أفرادها راجعين إلى وطنهم العزيز . أخذوا على عواتقهم أعباء النهضة . وإلى هذا تألفت سنة ١٩٠٩ مجالس المديریات ، وشرعت تتنافس في نشر التعليم ، ولا سيما في الأرياف ، زيادة على مدارس خاصة كثيرة ، قامت بها الجمعيات الخيرية وبعض الأفراد . وانتهت هذه الحركة المباركة في تلك الحقبة، إلى إنشاء كلية كانت نواة الجامعة المصرية التي قامت سنة ١٩٢٥ .

ومع كل ذلك فإننا نقدر أن نقول : إن العهد العثماني قد انقضى ومصر لا تزال تروح تحت أثقال الأمية ، ومدارسها الرسمية وغير الرسمية قليلة بالنسبة للأمصار الأخرى، وعدد تلاميذها أقل . وبمقتضى إحصاء سنة ١٩١٧ كان عدد المتعلمين فيها لا يتعدى ١٣٦ في الألف ، وعدد المتعلمات بنسبة ٢١ في الألف بحسب .

- التطور الثقافي في السودان :

منذ أن دخل الإسلام السودان مع العرب ، نشأت في تلك البلاد حركة علمية مركزة في ناحيتين : أولاها الكتاتيب التي تعنى بتلاوة القرآن وحفظه ، وثانيها حلقات المساجد التي يلقي فيها العلماء دروس الدين والأخلاق عقب الصلوات .

ولقد ظل هذا الشكل من التعليم الديني رائجاً في السودان طول زمن آل عثمان، وفي عهد الحكم الثنائي . وحتى الآن لا تزال « خلاوى » القرآن منتشرة في كل مكان ، ولا تفتأ حلقات الدروس تزحم المساجد . وكان مسجد أم درمان أحد تلك المعاهد التي يدرس فيها كبار العلماء منذ أيام الشيخ الجليل محمد البدوي ، الذي أقامته حكومة السودان شيخاً للإسلام .

وما زال هذا المعهد مركز التعليم الديني في السودان ، وتتولى الحكومة الإنفاق عليه .

وكان حكومة الاحتلال اعتبرت بما كان لهذه « الخلاوى » من الأثر البالغ في التفاف السودانيين حول المهدي ، حينما دعاهم لمقاومة الأجانب ، فشامت التضييق على التعليم القرآني ، ولكنها لم تأمن غائلة هذه المحاولة ، فرأت من المصلحة أن تصرف الناس عنه ، بإيجاد المدارس الرسمية . وإذا كانت سياسة الإنكليز التعليمية في مصر إنما تقوم على إيجاد مستخدمين للدوائر الحكومية ، فهل ينتظر منهم في السودان أن يحدوا عن هذه السياسة ؟

لذلك عمدت حكومة السودان - مذ تسلمت شئون التعليم العام - إلى الشح بالخصصات له في الميزانية ، حتى إن نسبتها لم تكن تتجاوز ثلاثة في المئة ، فضلا عن أنها أخضعت لقانون يحرم على أي شخص إنشاء مدرسة دون الحصول على تصريح كتابي . ولهذا الأسباب لم يبدأ التعليم الأهلي إلا عام ١٩٢٦ .

على أن المدارس الرسمية كانت ابتدائية فقط ، وعدد المدارس الوطنية لم يكن يتجاوز تسع مدارس حتى عام ١٩١٨ . تضاف إليها كلية غوردون ، التي أنشأها الإنكليز في الخرطوم في سنة ١٩٠٢ ، وربطوها بجامعة لندن .

د - تطور بلاد الشام الثقافي :

لما ضرب المغول بغداد تلك الضربة القاضية (١٢٥٦ هـ = ١٢٥٨ م) تحولت الحركة العلمية الأدبية في العراق إلى مصر والشام . فاستقبلها الفاطميون ثم الأيوبيون بالرعاية ، ونشأ في ظلهم طبقة من العلماء والأدباء المرموقين .

ولكن ذلك الازدهار الذي شمل بلاد الشام كان عابر سبيل أسوة بمصر ، لأن عوامل كثيرة لم تلبث أن تضافرت عليه فاستأصلته ، وألقت البلاد في الجهل والحرمان ؛ فقد دهم الصليبيون والمغول سورية ، ثم اكتسحها تيمورلنك ، فأمعن في الفتك بأهلها ، ولا سيما أهل العلم منهم . وكانت حلب حافلة بالعلماء ، فلما اكتسحها هذا الطاغية ، ذهبت على يده مكتباتها الكثيرة ، ومدارسها السلطانية والعصرونية والحلوية والشرقية والرواحية ، وكذلك وقع بدمشق . ثم صارت بلاد الشام ولاية لآل عثمان ، وما كان همهم فيها إلا جمع الأموال ، وتجنيد الرجال ، وإلى ذلك جعلوا لغتهم دون لغة القرآن ، وكانوا إذا ما أعاروا التفاتهم إلى العلم وأهله ، يحصرون هذا الالتفات حتى حين بقاعدة البلاد .

ولولا حلقات الدروس في مساجد بلاد الشام وكنائسها ، بالإضافة إلى مدارس قليلة في أمهات المدن ، لكانت على حال من الاحتضار ؛ ولولا أن نفرا من أهلها كانوا يتحملون المشاق ، فيؤمون الأزهر بمصر ، والنجف في العراق - وغيرهم يقتبسون نور المدنية من بلاد الغرب - لكان القضاء المبرم على كل معرفة في هذه البلاد .

على أن مدينة حلب كانت أكثر المدائن السورية نورا في أثناء تلك الظلمة ، وزهت بطبقة من رجال العلم والأدب ، برغم ما انتابها من كوارث المغول والتمتر ، ومن إهمال آل عثمان ، وقد سبقت البلاد الحرية إلى الطباعة .

هذا ، ولكن عوامل كثيرة سرعان ما تضافرت على مكافئة الجهل ، ونشر التمدن الحديث في بلاد الشام قاطبة ، ولا سيما لبنان ، نستعرضها فيما يلي :

هـ - العوامل الدينية :

عاملان مهمان عملا على توثيق العلاقات بين بلاد الشام وأوربة : أولهما بيت المقدس وما حوله من البلاد المقدسة مهوى أفئدة المسيحيين ،

وثانيهما ارتباط الطوائف السورية الكاثوليكية والمارونية دينيا بروما ،
وصداقة هذه الطوائف لباريس سياسيا ، ولا سيما أهالي لبنان .
فلسطين ما زالت كعبة الرهبان الآوريين على اختلاف مذاهبهم ،
ومحج النصارى حيث كانوا .

والطوائف الغربية وعلى رأسها الموارنة ، ما انفكوا منذ توثقت عرا
الصداقة بين السلطان سليمان القانوني وفرنسوا الأول ، يرجعون لباريس
عند كل مهمة .

وهذان العاملان بالإضافة إلى المطامع الدولية بالشرق الأوسط ، كانا
حافزين لأوربة على إرسال البعثات التبشيرية ، وحمايتها في بلاد السلطنة ،
ولا سيما ولايتي سورية وبيروت .

واستعدادا لذلك أنشأ البابا هونوريوس الرابع عشر ، في غرة القرن
الرابع عشر ، مدرسة بباريس تعنى بتعليم اللغة العربية ؛ كما أن اليسوعيين
فتحوا أواخر القرن السادس عشر مدرسة في روما ؛ وكانت تعنى بتعليم
العربية والعبرانية ، ثم أمر البابا غريغوريوس الثالث عشر بإنشاء المدرسة
المارونية في عاصمة الكتلكة (١٥٨٤ م) ، وسلم إدارتها لليسوعيين .

وكانت تركية قد أمست فريسة الاضطرابات الداخلية ، والغزوات
الخارجية ، فنسنى لفرنسا أن تستثمر ضعفها ، وتؤكد امتيازاتها ، وأتيح
لسائر الدول الحصول على مثل هذه الامتيازات ، وكان على رأسها حماية
الإرساليات الدينية .

وهكذا تسنى لهذه الإرساليات أن تقدم لدولها خدمات جلي ، ليس
في صعيد نشر الدين فحسب ، وإنما في الشؤون السياسية والاقتصادية أيضا ،
هى في نفس الوقت كانت بالنسبة لبلاد الشام ، من عريش مصر إلى تخوم
الأناضول ، عاملا على تلقيح جراثيم النهضة ، وذلك بالمدرسة التى انتشرت
في كل بلد وقرية . على أنها كانت حافزا أيضا لأهل البلاد على اختلاف

طوائفهم ، على إنشاء المدارس الوطنية ، خشية ارتساء أبنائهم في أحضان مؤسسات التبشير .

و - العوامل الثقافية :

أكب الأوربيون منذ القرن الثاني عشر على المؤلفات العربية يترجمونها ، ويدرسونها في مدارسهم ، واستمر بعض كلياتهم يواظب على تدريس بعض العلوم باللغة العربية ، إلى أجيال غير بعيدة .

ولما اخترع فن الطباعة في أواسط القرن الخامس عشر ، عنوا بطبع بعض المؤلفات العربية ، وظلوا مدة طويلة على ذلك ، حتى إنه لما لجأ الأمير نجر الدين المعني الثاني إلى إيطاليا ، في صدر القرن السابع عشر ، شاهد فيها هذه المطبوعات تباع بأثمان معتدلة .

وهذه العناية بتدريس لغة القرآن وترجمة الكتب العربية وطبعها ، استلزمّت تقريبهم بعض المتعلمين من البلاد العربية ، قصد الاستعانة بهم . واللبانيون مازالوا نقلة العلوم منذ القديم ، شأنهم في التجارة ، وما زالوا يستهينون بالغربة والأسفار ؛ فاستقر منهم أساتذة في أوربة ، أشهرهم إبراهيم الحقلاني (ت ١٠٣٧ = ١٦٢٧) ، وكان يدرس اللغة العربية في « كلية فرنسا » بباريس ، وشمعون السمعاني مدرس اللغات الشرقية في كلية بادوا منذ سنة (١٢٠٠ هـ = ١٧٨٥ م) . والقس مخايل الخزيري ترجمان ملك أسبانيا كرّوس الثالث ، والخوري أنطون عريضة معلم اللغات الشرقية في وينّة . وكان أكثر هؤلاء من خريجي المدرسة المارونية في روما .

هذا ، وقد رافق ازدهار النهضة الأوربية نشوء طبقة من العلماء ، إنما رغبوا في علوم الشرق ولغاته حباً في العلم نفسه ؛ كما أن استفحال شأن الاستعمار الأوربي رافقته عناية الدول الطامحة إلى تعليم طبقة من الموظفين لغات الشرق ، ومنهم علماء ، ومنهم سياسيون .

وهؤلاء المستشرقون من أهل الطبقتين ، خدموا العلم على وجه عام ؛ إذ نشروا ما انتوى من مدينيات الشرق ، وترجموا فيما ترجموا عن العربية : الطبيعيات والفلسفة والرياضيات ، وخدموا العرب على وجه خاص ، لأنهم جمعوا بعض كنوزهم العلمية ، ثم عرفوا كيف يعرضونها .

وكان هؤلاء الأجانب المستشرقون ، وأولئك المواطنون المستغربون ، ألف وصل بين التمدن الحديث وبين بلاد الشام المتوثبة ، وكان لهذه الصلة مفعولها الكبير في نهضتها الثقافية .

ز — العوامل السياسية :

إن الحوادث الجسام التي شغلت أوربة أواخر القرن الثامن عشر ، كان لها أثر أى أثر في يقظة هذا الشرق العربي ؛ فلقد شبت الثورة الفرنسية ، ثم جاء نابليون بوناپرت إلى مصر ، واحتلها قصد أن يجعلها مركزا استراتيجيا للحملة على الهند ، وتعداها إلى سورية . ولكنه وإن عاد مدحورا عنها قد ترك في الميدان دروسا مفيدة للسلطان سليم الثالث (١٧٨٩ — ١٨٠٨) ، من حيث ضرورة الأخذ بمبادئ الإصلاح الأوربي ، ولا سيما الفن الحربي الحديث .

ولكن طغمة المحافظين في تركيا بالإضافة إلى الإنكشارية المستبدة ، حالوا بين السلطان وأمانيه ، وخلعوه من أجلها . وكان السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ — ١٨٣٩) كثير الاتصال بالسلطان سليم بعد خلععه ، وقبل أن يتبوأ محمود العرش ، ثأر له بالتقضاء على الإنكشارية ، وعنى بتحقيق أمانيه في الإصلاحات المدنية والعسكرية . وكان في جملة ذلك إنشاء المدارس الابتدائية والثانوية ، فضلا عن المعهد الطبي ، ومباشرة إرسال أولى بعثات الطلبة لأوربة . ولما كان الناس على دين ملوكهم ، بدرت في ذلك الحين من بعض ولاية سورية بوادر عطف على التجديد والآداب ، كانت

تظهر كوميض برق خلال الرماد الأسود . ونخص بالذكر منهم سليمان باشا بعكا ، ويوسف باشا كنج بدمشق ، والأمير بشيرا الشهابي ببلنجان .
غير أن هذا النشاط الأدبي لم يلبث أن انحى مدة من الزمن ، تحت سناك قوافل السياسة ، فلقد استطاع محمد علي باشا والي مصر أن يكتسح بلاد الشام ، ويتعداها إلى الأناضول ، قاصدا عاصمة السلطان .

وعملت الدول على رده إلى مصر ، وبقي استقلال تركية محفوظا كما كان . وهو حادث تاريخي يبدو كأنه انتهى ؛ والواقع أن هذه الغزوة تركت آثارا محسوسة في مستقبل هذه السلطنة ، وخصوصا أن إنقاذ الدول لتركية ، جعل الباب العالي واطئا لإزاء الدوننج ستريت والكي دورسيه وغيرهما ، وجعله يتلقى النصائح منهما بقبول وامتنال . وبكلمة أخرى ، كان لهذا الحادث ذيول ، بفتحه باب « المسألة الشرقية » . وكان له رد فعل في الناحية الثقافية ، حقا أن النشاط الأدبي أصابه كثير من الذبول في سورية خلال الحملة المصرية ، غير أن العاقبة كانت خيرا ، بإقحام تركية العهد الإصلاحى .

لقد قام السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ — ١٨٦١) من ثم بالإصلاحات المطلوبة ، وفي جملتها إنشاء المدارس الرشدية والإعدادية . ولما خ السلطان عبد العزيز (١٨٦١ — ١٨٧٦) وكان عمرانيا ، كثير الشبه بمعاصره الخديو إسماعيل باشا بمصر ، جرى وإياه في سبيل واحد ، من حيث تنشيط النهضة ، والبذل في مكافأة العاملين والمؤلفين . وكما لهما من أياد بيضاء على بطرس البستاني ، وأحمد فارس الشدياق ، ومارون النقاش ، وغيرهم من مؤسسى النهضة السورية ! وفي مفتح ولاية السلطان عبد العزيز فتحت حكومة حلب المدرسة المنصورية (١٢٧٨ هـ — ١٨٦١ م) ، وهى أولى مدارس الحكومة في بلاد الشام .

ولما صار عرش السلطنة لعبد الحميد الثانى (١٨٧٦ — ١٩٠٩) ، واقتضت سياسته تقريب العرب ، أذن لمدحت باشا والى دمشق فى إنشاء

المدارس ، نخف الدمشقيون بإيعازه إلى تأليف الجمعية الخيرية (١٨٧٨) ، وعهدوا إليها بإنشاء المدارس ، فبلغ عددها وقتئذ ثمانى مدارس ابتدائية للذكور والإناث ، فضلا عن دار للصنائع ، واعتنت هذه الجمعية أيضا بتأسيس المكتبة الظاهرية ، ثم لم يطل بقاء الجمعية بعد نقل مدحت باشا من سورية . أما في بيروت التي كانت وقتئذ متصرفية تابعة لولاية سورية فإن حكومتها تركت هذا الميدان للمدارس الأجنبية ، تتعهد على هواها تربية الناشئة التربوية التي تريدها . ولم تنشئ الحكومة المدرسة الإعدادية فيها إلا سنة ١٨٨٥ م ، بالإضافة إلى الرشدية والعسكرية ، ثم صحت نية الحكومة من بعد على إنشاء كلية للطب بدمشق ، ففتحتها سنة ١٩٠٣ ، وجعلتها مشتملة على فرع للصيدلة ، ثم شفعها بكلية للحقوق في بيروت سنة ١٩١٢ ، وكان التدريس في هاتين الكليتين باللغة التركية .

على أن قيام هذه المدارس لم يكن في الواقع يبرر تقصير السلطنة في صدد نشر المعارف ، ذلك لأن جباية سورية كانت على رواية الأب لامنس في كتابه Lamem, La Syrie تبلغ أوائل القرن العشرين نحواً من تسعين مليون فرنك ، لم يكن يخصص للمعارف منها سوى إحدى وسبعين ألف ليرة تركية .

وإزاء هذا الموقف الذى وقفته تركيا في بلاد الشام وغيرها من العلم والتعليم ، كانت كل دولة من الدول الأوربية تعمل على نشر نفوذها في المنطقة التي تطمع بها ، آملة أن تكون حصتها أرجح من سواها في إرث الرجل المريض ، وهل ثمة أفضل من المدارس لإدراك هذه الغاية ؟

لذلك رأينا الدول الأوربية تنسابق في ميدان المدارس ، وفي إنشائها هنا وهناك في بلاد الشام ، ولا سيما ولاية بيروت وجبل لبنان ، وهى في هذا التنافس تنسابق إلى البذل أيضا . وعلى رواية كتاب Puissances Trancassie P58-88 خصصت فرنسا سنة ١٨٩٥ لمدارسها في الشرق

الأدنى مبلغ ٧٠٠ ألف فرنك ، أما روسيا فوضعت في ميزانيتها لهذه الغاية مليون فرنك ، وإيطاليا مليوناً وأربعمائة ألف فرنك . ثم لم تقف الدول عند هذا الحد من الكرم ، بل كانت تسترسل في جودها على مرّ الأيام .

على أن بلاد الشام وإن نكبت سياسياً واجتماعياً من جراء التدخل الأجنبي بين أهلها ، جنت منه فوائد جليلة في الناحية الثقافية ، كانت قوام نهضتها الحديثة .

ح — العوامل الاقتصادية :

لما أصابت الصناعة تقدماً محسوساً في أوربة ، وضاق نطاق هذه القارة عن استيعابه ، واحتاجت دولها إلى المواد الأغفال لمصنوعاتها ، مدت أبصارها إلى آسيا وإفريقية ، قصد أن تشتري منها رخيصة وتبيحها غالياً .

وكانت أوربة تقدر الفوائد المرجوة من جراء معرفة رجالها الموظفين في المستعمرات وغيرها ، ألسنة أهل البلاد ، فوجهت عنايتها لتدريس اللغات الشرقية الحية ، وأنشأت فرنسا منذ سنة ١٧٩٥ مدرسة لتعليم هذه اللغات بباريس ، وجرى مجراها غيرها من الدول الطامحة . على أن بلاد الشام وإن ظلت في منجى من الاستعمار الأوربي السياسي حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، ما استطاعت مع ذلك البقاء مستقلة عن نفوذ أوربة وأميركا الاقتصادية .

ومع ذلك يمكن القول بأن السوريين سواء كانوا في الساحل أو الداخل ، أظهروا مناعة كافية في الناحية الاقتصادية ضد الجارف الأجنبي ، فلم يفسحوا له المجال للقبض على زمام التجارة في أسواقهم ، بل قامت منهم بيوتات تجارية وتجار هيمنوا على الأسواق ، وكانوا فضلاً عن ذلك ألف الوصل بين الغرب والشرق القريب ؛ أما وإن مزاوله التجارة

رسائر الشؤون الاقتصادية أصبحت تتطلب معرفة في اللغات والجغرافية وأصول التجارة وغيرها ؛ فقد حصل إقبال شديد على المدارس والكليات الأجنبية ، كان نتيجة لضرورة اقتصادية ، وخصوصا في بيروت ، المدينة التي صارت في ذلك الوقت مرفأ للبلاد العربية المجاورة ، ول بعض البلاد التركية . وكان هذا التواصل التجاري وسيلة للاختلاط بين أهل البلاد وبين العالم الغربي ، بوساطة الناهيين إلى أوربة وأمريكا والقادمين منهما ، وما أشد ما يفعل مثل هذا الاختلاط في ميدان التقدم !

وإلى هذا ، إن قيام الشركات الأجنبية ذات الامتياز في بلاد الشام كشركات الخطوط الحديدية والمرافئ والكهرباء والماء والغاز والتمار والبنوك ، مثلها أفضى إلى نزول عدد من الأخصائيين في بلاد الشام ، كان حافزا آخر للأهلين على دخول المدارس ، أملا في الاستخدام في هذه الشركات وغيرها .

ثم لما أخذ أهل البلاد بأسباب النهضة الصناعية والزراعية ، معتمدين في ذلك على الأساليب الميكانيكية الحديثة ، واحتاجوا من ثم إلى طبقة من الأخصائيين ، تسابقوا إلى إيفاد أولادهم إلى جامعات أوربة وأمريكا ، يقضون سنين فيها للتخصص الفني ، حتى إذا قفلوا عائدين لوطنهم ، كانوا يعودون مشبعين بروح جديد يبشرونه في البلاد مضافا إلى علومهم .

وهناك عامل آخر كانت له أهميته في نهضة بلاد الشام ، وخصوصا لبنان ، وأعني به عامل الهجرة إلى الأمريكتين ؛ فالهجرة لم تكسب البلاد الأموال فقط ، تلك الأموال التي رفعت الصروح الجميلة ، والدور الكثيرة ، في سورية ولبنان ، بل كانت أيضا في جملة الأسباب التي فتحت كوة من النور في كيانا الصغير ، بالتواصل مع البلاد الراقية ، وبما كان للعائدين إلينا من تأثير شديد في بيئاتهم الريفية والقروية .

وهذه العوامل مجتمعة تضافرت على خلق بعث ثقافي في ولايتي سورية وبيروت ، وفي متصرفية لبنان ، صاحبه انقلاب اجتماعي ، جعل هذه البلاد في المرتبة المرموقة حول البحر المتوسط . وكانت هذه العوامل بمثابة مقدمات لتنتج ظهرت على مراحل ، نستعرضها فيما يلي :

ط — عهد رجال الدين لغاية القرن الثامن عشر :

كان العلم والأدب ببلاد الشام في صدر العهد العثماني ، لا يتعدى نطاق العلوم الدينية والأدبية . وهو إلى ذلك كان محصورا في رجال الدين . ثم كان لاتصال الأكليروس المسيحي بأوربة أثر بالغ في النهضة السورية ؛ ذلك أنه عدا أولئك الذين انتشروا في باريس وفلورنسة وفيينا وبادوا وغيرها ، من خريجي المدرسة المارونية في روما وسواهم ، أخرجت هذه المدرسة فحولا من القسس عادوا إلى الوطن ، وتولوا فيه أكبر الخدم الكهنوتية ، فكان منهم البطارقة والمطارنة منذ القرن السادس عشر .

وقد استخدم هؤلاء نفوذهم الروحي لخدمة أبناء ملتهم في الناحية الثقافية ، فكانت مدرسة حوكة في جبل لبنان التي أنشئت سنة ١٠٤٢ هـ = ١٦٣٢ م ، باكورة هذه الخدمات ، ثم تلتها مدرسة أخرى بحلب سنة (١٠٧٣ هـ = ١٦٦٢ م) فمدرسة عين ورقة ببلبنان ، (١٢٠٤ = ١٧٨٩ م) وعشرات غيرها فيما بعد ، خصوصا حينما حولوا بعض الأديار إلى مدارس . وهم إلى ذلك قد عنوا بإنشاء المطابع ؛ وكانت أولها تلك التي أقاموها بحلب ، في مطلع القرن الثامن عشر . وأما الثانية فهي مطبعة عبد الله زاخر ، في دير مار يوحنا الطباشة ببلبنان ، وهو راهب حلي ربما نقل فكرة هذه المطبعة من حلب لطبع الكتب الدينية .

على أن الإقبال على إنشاء المدارس في القرن الثامن عشر ، لم يقتصر على الطائفة المارونية في لبنان ، بل شمل غيرها من الطوائف المسيحية ،

ولعل الأرمن كانوا في الطليعة ، لاختلاطهم بالغرب عن طريق الآستانة وغيرها . فقد أنشأ غريغوريوس الأول راعي الأرمن الكاثوليك مدرسة بزمارة سنة (١٢٠٣ هـ = ١٧٨٨ م) ، كما وضع بطريرك السريان الكاثوليك مخائيل جروه أسس مدرسة الشرفة ، وأنشأ بطريرك الكاثوليك أغايوس مطر مدرسة عين تراز (١٢٢٦ هـ = ١٨١١ م) ، وكلها في جبل لبنان .

وتألفت خلال ذلك الرهبنات الوطنية عند الموارنة والروم الملكيين ، فشاركت في نشر المعارف ، وفي ترجمة بعض التآليف اللاتينية .

على أن تلك المدارس والمطابع وإن كان هدفها دينيا ، لأنها إنما وضعت لتخريج الأكليروس ولنشر المؤلفات المسيحية ، أعطت مع ذلك نتائج طيبة في خدمة النهضة العامة ، ولا سيما أن كثيرين من خريجيها لم يتكسروا من بعد في الطقوس الأكليريكية ، وإنما راحوا يستثمرون أدهم في خدمة دواوين الأمراء والحكام . نذكر منهم نقولا الترك (ت ١٨٢٨) ، ومخائيل البحري (ت ١٧٩٩) ، وإلياس أده (ت ١٨٢٨) ، وبطرس كرامة الحمصي (ت ١٨٥١) ، وعبود البحري .

وكان يعاصر هؤلاء في القرن الثامن عشر أدباء من المسلمين ، وعلماء كثيرون ، نذكر منهم المشايخ عبد الغني النابلسي ، وعثمان ظاهر العمر ، وأحمد البربر (ت ١٨١١) ، وأحمد عمر دبوس ، وعمر اليافي (١٨١٨) ، وإبراهيم الحر العاملي ، والأمير حيدر أحمد الشهابي (ت ١٨٣٤) ، والشيخ أمين الجندی (ت ١٨٤١) ، وعبد اللطيف فتح الله . وقد تولى الإفتاء في بيروت . قال عنه الأب شيخو : « وكان شاعرا ، إلا أن شعره مفقود » . وقد حملني قوله هذا على الإشارة هنا إلى وجود تاريخ نظمته المفتي المشار إليه ، وكتبه بخط يده ، مهنتا به جدي الحاج مصطفى بيهم ، بمناسبة إرخاء لحيته سنة ١٢٥٢ هـ الموافقة سنة ١٨٣٦ م ، قال :

تبدى عذار الفتى مصطفى فأحسن به من عذار نفيس

تحلت به وجنتاه سجالاً فأصبح فيه ابتهاج النفوس
وللسك وهو الزكى شذاه وأرخ : « حكي خمار العروس »

وهذا التاريخ لا يزال محفوظاً في متحف المتواضع .

هذا ؛ وقد كان هذا التفاعل بين بلاد الشام وبين الغرب برجال
الأكبروس ، عنصراً فعالاً في جملة العناصر التي خلقت النهضة الفكرية
والأدبية في ساحل هذه البلاد وداخلها .

ي — الإرساليات الأجنبية وانتشار الثقافة بين الشعب :

إن الخمس والعشرين سنة التي أعقبت انسحاب جيوش محمد علي باشا
والى مصر من بلاد الشام ، كانت بالنسبة للآداب العربية من خير الأزمان
حفولاً بعناصر النهضة ، ولا سيما في ناحيتين :
أولاهما : تسابق الدول الأجنبية في ميدان إيفاد البعثات العلمية إلى بلاد
الشام ، وإقامة المطابع والمدارس .

ثانيهما : بروز نتائج المدارس الوطنية ، واهتمام الناس بها .
ويرجع إقبال الأوربيين على إرسال هذه البعثات ، وعلى تنشيط
رعاياهم للإقامة في الأمبراطورية العثمانية ، إلى ثلاثة أسباب :
(١) اطمئنانهم إلى تركية منذ أصبح زمامها بأيديهم ، بعد إنقاذهم إياها من
خطر الاكتساح المصرى .

(٢) تنافسهم على استثمارها اقتصادياً .

(٣) تأهب كل منهم للحصول على أكبر حصة من إرث « الرجل
المريض » ، على تعبير قيصر روسيا .

ولما كان احتلال القلوب من شأنه أن يسهل فتح المعازل ، ساقط
كل دولة من هذه الدول حملة من البعثات الدينية إلى البلاد العثمانية ، وكان
في طليعتها إلى بلاد الشام ، المرسلون من الكاثوليك والآنكلو سكسون . ثم تلتهم

إرساليات أخرى بأسماء مختلفة ، رجال ونساء ، وانتشروا جميعهم في المدن والقرى ، ولا سيما في لبنان وفلسطين .

وكان الإرساليات اللاتينية كانت تعتبر ولاية بيروت ولبنان منطقة نفوذ لدولها ، فكبر عليها ما أظهرته الإرساليات الأمريكية من نشاط ، فإذا بها تنحف إلى منافستها في نشر المدارس ، ورفع درجات بعضها ، وإقامة المطابع ، وإصدار الصحف ، متخذة بيروت نقطة انطلاق لجهودها ؛ فلما نقل المرسلون الأمريكيون مطبعتهم من مالطة إلى بيروت سنة ١٨٤٦ ، سارع الآباء الفرنسيون إلى إقامة مطبعتهم الكاثوليكية بعد سنتين من ذلك . ولما افتتح الأمريكيون بيروت سنة ١٨٦٦ الكلية الإنجيلية ، وكانت مدرسة في قرية عيبة بلبنان ، بادروا اليسوعيون لنقل مدرستهم إليها من قرية غزير ، وذلك في سنة ١٨٧٤ . ثم عكف كل من اللاتينيين والإنكليوسكون ، على ترقية معاهده العلمية ، حتى صار لها فيما بعد جامعتان ، وما أشد ما كانت تستفيد البلاد من هذا التنافس !

وكانت سائر الإرساليات البروستانتية والكاثوليكية تجرى أيضا على مثل هذه المنافسة ، وانتهى بها الأمر إلى النسابق أيضا في ميدان إنشاء المدارس النسائية ؛ فقد أنشأ الأمريكيون سنة ١٨٤١ ، بمساعي مسترها سككنس مدرسة للبنات بيروت ذات قسم داخلي ، وإذا باللاتينيين يتعقبونهم ، فأنشأت أخوية ابنة الإحسان ' fill de la charite ' سنة ١٨٤٣ مدرسة مثلها في البلدة نفسها ، كما فتحت فيها راهبات القديس يوسف (١٢٦٥-١٨٤٨) مدرستين للبنات أيضا ، وهكذا دواليك ، حتى كاد عدد مدارس الإرساليات للبنات يضاهي عدد مدارس الذكور .

وكان من محاسن هذا التنافس ، خروج العلم والأدب في بلاد الشام من نطاق البيئات الدينية ، إلى صفوف الشعب ، وأصبح يشمل المرأة مربية الجيل الجديد ، كما يشمل الرجل . وكان في الطليعة خريجو المدارس الوطنية

الذين استعانت بهم الإرساليات في التدريس والتعليم . ومنهم بطرس البستاني (ت ١٨٨٣) وأحمد فارس الشدياق (ت ١٨٨٧) تلميذا مدرسة عين ورقة . وأخذ منذ ذلك الشيخ ناصيف اليازجي يحتل مكانته الأدبية (ت ٨٧١) .

وكان من محاسن هذا التطور ، أن نشط المسلمون أيضا إلى الأخذ بالآداب الحديثة ، والرغبة فيها رغبة تشبه أن تكون شعبية . فاشتهر منهم في الساحل : الأمير محمد أمين أرسلان ، مؤلف كتاب « أصول التاريخ » (ت ١٨٦٨) ، وهو أول من ألف في هذا الموضوع بين العرب في العهد الحديث ، « ومصباح البربر » (ت ١٨٥٥) ، والسيد عمر الأنسي (ت ١٨٧٦) ، والشيخ يوسف الأسير ، تلميذ المدرسة المرادية بدمشق ، وأستاذ المدارس الناشئة ببيروت (ت ١٨٨٩) ، والشيخ إبراهيم الأحب (ت ١٨٩٠) .

وأما في الداخل فكانت دمشق وحلب حافلتين بالعلماء ، نذكر منهم الشيخ عبد الله الحلبي ، ومكسيموس مظلوم (ت ١٨٥٥) ، ومخائيل مشاقة (ت ١٨٨٨) ، وفرنسيس مراش (ت ١٨٧٣) ، ورزق الله حسون (ت ١٨٨٠) ، وهو أول من أنشأ صحيفة عربية بالآستانة ، ومحمد حسين الحلبي العطار (ت ١٨٧٧) ، وهو من علماء الرياضيات ، فضلا عن بعض المغتربين ، كأديب إسحاق الدمشقي (ت ١٨٨٥) ، وجبرائيل دلال الحلبي (ت ١٨٩٩) .

على أن التنافس بين المرسلين الأجانب كان مع ذلك مثيرا لنشاط أهل البلاد ، ولتفافهم على ممارسة الحرفة الثقافية ؛ فإذا بمطبعة القديس جاورجيوس ببيروت ، التي كانت توقفت عن العمل ، تعود إليه سنة ١٨٤٨ م ؛ كما أنشأ بطريرك الروم في القدس مطبعة القبر المقدس ، وهكذا دواليك ، فكانت نهضة شعبية ، مشى في طليعتها خريجو المدارس على اختلاف ألوانها .

ك — عهد الصحف والجمعيات والمطابع :

كثيرا ما تكون عقبي الشر خيرا ، ومن هذا القبيل ما كان لفترة ١٨٦٠ الطائفية الممقوتة من الفوائد لبيروت ، ثم للنهضة فيها : فقد عملت هذه الفترة على تعمير هذه المدينة بن لجأ إليها من ولاية سورية وجبل لبنان ، واستوطنوها ، وجعلوها مركز انطلاق لجهودهم الجبارة .

يضاف إلى ذلك أن تمتع جبل لبنان إثر هذه الفترة باستقلاله الإداري ، تحت إشراف دولي ، جعله وجعل بيروت موردا عذبا للأجانب ، من جراء اطمئنانهم على مصالحهم ، فكان تنافسهم في ميادين التجارة هنا ، لا يقل عن تنافسهم في صعيد السياسة والثقافة ، ولكنهم وجدوا في الميدان تجارا يبدونهم اقتدارا في الناحية الثقافية ، وأعنى بهم أهل البلاد ، فكان تسابق بين الجميع ، أفضى إلى الثروة والعمران . كانت ثم نهضة ثقافية اجتماعية ، هي وليدة إرادة وطموح ، غذاها المال والعرفان . أما مظاهر هذه النهضة فكانت تبدو في ظاهر الأمر في النواحي التالية :

- (١) ظهور الصحف وارتقاؤها .
 - (٢) ازدياد المدارس على اختلاف نزعاتها وتنافسها .
 - (٣) تأليف الجمعيات .
 - (٤) كثرة المطابع والمؤلفات .
 - (٥) وفرة عدد المتعلمين والمتعلبات .
- هذا ؛ وكان أول الصحف العربية هو ما صدر منها في مصر والآستانة . وأما في بلاد الشام فكانت جريدة حديقة الأخبار ، التي صدرت ببيروت سنة ١٨٥٨ ، هي باكورة الصحف فيها .
- وكان الباب العالي شعر بعد فترة ١٨٦٠ باستفحال الدعايات الأجنبية ، فأوعز إلى الولاية بضرورة نشر الصحف الحكومية ، فأصدر والي دمشق

جريدة «سورية» (١٨٦٥)، وأصدر والى حلب جريدة «الفرات» (١٨٦٨)، وتلتها جريدة «الشهباء» (١٨٧٧). كما أن متصرف لبنان أصدر جريدة لبنان (١٨٦٧)، ثم أنشأ عزت «باشا» العابد، وكان وقتئذ رئيس قلم المخابرات بدمشق جريدة «دمشق» (١٨٧٨) وذلك بإيعاز من والى الولاية جودت باشا.

وعلى رغم أن الحكومة كانت تضيق على حرية الصحف، ورغم هجرة كثيرين من أدباء البلاد - ولا سيما اللبنانيين منهم - إلى مصر، حيث قاموا بنهضة صحفية ممتازة، وإلى غيرها، رأت بلادنا سيلا من الصحف لا ينضب معينه، وهكذا شرعت جهود المعلم بطرس البستاني وولده سليم تظهر للعيان، في صعيد الأدب والصحافة، فأنشأ مجلة الجنان، وجريدة اللجنة سنة ١٨٧٠ اللتين تركتا لهما أطيب الأثر.

وأما المدارس فقد أشرنا إليها في الكلام على الإرساليات الدينية، ومع ذلك فلا بد من الإشارة إلى أن باكورة المدارس الوطنية في بيروت، كانت «المدرسة الوطنية» التي أنشأها المعلم بطرس البستاني المشار إليه. ثم خلفتها مدارس كثيرة، لا عيب فيها إلا أنها كانت ذات صبغات طائفية، خلافا للمدرسة الوطنية المذكورة. ولا بد لنا أيضا من الإشارة إلى كليات الآستانة العالية، وما كان لها من الأثر في نشر المعارف بولاية سورية. فتحت هذه المدارس أبوابها لأبناء العرب، فشرعوا يؤمنونها، ولا سيما طلاب الوظائف في الدولة، وكلهم تقريبا من أبناء الداخل، وأما أهل الساحل فكان لهم في الاتجار المشر، ما يشغلهم عن التفكير في الوظائف؛ فانصرفوا إلى المعاهد الوطنية والأجنبية الكثيرة في مناطقهم، وخصوصا لعنايتها باللغات الأجنبية، التي يحتاجون إليها في أعمالهم التجارية.

هذا، وكان من نتيجة وفرة المتعلمين والمتعلقات في بيروت، بروز اتجاهات عامة بين الشعب نحو المشاركة في أسباب النهضة، وميل الطبقة المثقفة للعمل

متكتلة في هذه السبيل ، فأنشئت من جراء ذلك الجمعيات ، وكانت « الجمعية السورية » أولاها ، أسسها بعض المرسلين مع فريق من الوجهاء المثقفين سنة ١٨٤٧ م . وقد اهتمت بنشر الثقافة ، ولكنها لم تعيش طويلا . ثم عادت للظهور ثانية سنة ١٨٦٨ م ، وبدلت اسمها سنة ١٨٨٠ م ، فجعلته « المجمع العلمي الشرقي » .

وخلال ذلك استقل أهل البلاد عن الأجانب المواطنين في إنشاء الجمعيات الوطنية الصرفة ، فكانت أولاها « الجمعية العلمية السورية » سنة ١٨٦٨ م ، ثم تلاها كثير من الجمعيات ، وكانت غاياتها على الأكثر خيرية ووطنية .

ولم تتقاعس السيدات عن تأليف الجمعيات أيضا . بدأ بذلك الأجنيات ، فأنشأ الراهبات سنة ١٨٥٣ م جمعيتين ، غايتهما تهذيب الفتيات ، وهما جمعية المريات في بكفيا ، وجمعية قلب يسوع في معلقة زحلة ، ثم تعددت الجمعيات النسائية .

وأما المطابع فقد أخذت في الانتشار في دمشق وحلب ، فضلا عن بيروت والقدس ، وأصدرت مجموعة طيبة من الكتب ، لأدباء أصبحوا يمتازون بصحة الإنشاء والترجمة ؛ كما طبعت بعض المختارات القديمة . وقد أصبح أدباء العصر وقتئذ على كثرة في العدد ، حتى لا يتسع المقام لذكرهم . وحسبنا الإشارة بالإضافة إلى الذين نوهنا بهم من قبل وهم الحاج حسين بيهم ، من بيروت (ت ١٨٧٥) ومحمود بن خليل العظم ، من دمشق ، ومحمد سعيد دجاني ، من القدس .

وأما الأدبيات فقد حفل بهن الزمن ، وكان أكثرهن من البيوتات المعروفة بالأدب ، وأشهرهن مريانا مراش ، ووردة الترك ، ووردة اليازجي ، وفاطمة انة الأمير أسعد الخليل .

على أن الكتابة في ذلك الوقت كانت على صحتها ، إنما تتوخى العناية بالألفاظ ، والانسجام في العبارات ، عناية تفوق الاهتمام بالمعاني .

ل — تباشير النهضة وبواكيرها :

مدارس وجمعيات ومطابع ومكتبات ومؤلفات انتشرت في أنحاء البلاد ، ولا سيما لبنان وبيروت خاصة ، فنقلتها من حال إلى حال ، حتى كادت بلاد الشام ، ساحلها وداخلها ، تبدو غريبة عن الماضي القريب .

غير أن هذه النهضة الوثابة ، وإن ظلت مثابرة على تقدمها سنة فسنة من جراء وفرة المدارس الأجنبية ، التي كانت تتمتع وحدها بالحرية ، منيت إبان عهد السلطان عبد الحميد بتضييق شديد ، ومراقبة مؤذية ، أدت إلى تضائل المدارس الوطنية ، وأفضت إلى حجب الصحف وحل الجمعيات .

والتي كانت تستطيع أن تعيش من الصحف ، هي التي كانت تخدم الدولة ، وتتجنب البحث في السياسة ، فلم يجد بعض المتعلمين بدا من الهجرة ، إما إلى أمريكا وإما إلى مصر ، ولجأ بعضهم إلى أوربة .

والذين أقاموا في مصر وجدوا هناك نهضة كانت تترعرع من عهد محمد علي باشا ، وتزدهر إبان ولاية إسماعيل باشا ، فشاركوا في تأييدها ؛ كما أن بعضهم التحقوا بوظائف الحكومة ، فبلغوا أسمى المراتب ، وخدموا الصحافة ، فكانوا أركانها ، وفي طليعة هؤلاء الدكتوران يعقوب صروف وفارس نمر ، منشأ المقطم والمقطف ، وسليم تقلا باشا منشئ الأهرام ، والمؤرخ جرجي زيدان منشئ الهلال ، والسيد رشيد رضا صاحب المنار ؛ هذا فضلا عن أدباء آخرين ، أرفهوا أقلامهم لخدمة العلم والأدب والحرية ، نذكر منهم عبد الرحمن الكواكبي ، وأديب إسحاق ، وشبلى شميل ، ونجيب حداد ، وفرح أنطون ، ورفيق العظم ، وليدية هاشم .

وأما المتخلفون في بلاد الشام من أهل العلم والأدب ، فكانوا يصطدمون برقابة على كل منشور ومنظوم ، وعلى كل ما يتلى في الاجتماعات ؛ ولما كان لا يسمح بإلقاء خطبة إلا بعد ما يوافق عليها قلم الرقابة ، صارت الخطب العامة في الغالب لا تتعدى الموضوعات المبتذلة ؛ على أن بعضهم أخذوا يبثون شعورهم وشكواهم في صحف مصر ومجلاتها ، فأفضى ذلك إلى منع تلك الصحف والمجلات من دخول السلطنة العثمانية .

وليس بوسعنا أن نحصى هنا عدد مشاهير العلماء والأدباء المتخلفين في بلاد الشام ، لكثرة عددهم ، فنقتصر على التنويه بالشيخ إبراهيم اليازجي ، وسليمان وعبد الله البستاني ، وجبر ضومط ، وإبراهيم الحوراني ، ومصباح رمضان ، والأمير شكيب أرسلان ، وحسن يهيم في بيروت ، والشيخ طاهر الجزائري ، ومحمد سليم القصاب بدمشق .

على أن ذلك التضيق على حرية الفكر في العهد الحميدي ، لم يعد بوسعه كبح جماح النهضة في ولاية بيروت ، ومتصرفية لبنان الممتازة ، وذلك لوفرة المدارس فيهما والكليات الأجنبية ، التي كانت خارج نطاق المراقبة التركية ، فضلا عن تأثير الاختلاط المستمر بالعالم الناهض .

فلما أعلن الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ كان بيروت بضع وخمسون مدرسة كبيرة ، بينها عشر للبنات ، بالإضافة إلى ست كليات ، وذلك عدا المدارس الصغرى . وكان عدد الجرائد اليومية سبعا ، والأسبوعية عشرة ، وعدد المجلات أربعة ، والمطابع عشرة ، وفوق ذلك سبع عشرة مكتبة ، وثلاث عشرة جمعية خيرية ، وست جمعيات علمية ، وذلك بحسب إحصاء دليل بيروت . ثم ما إن أطلق عقال الحرية إثر إعلان الدستور ، حتى زاد عدد المدارس والصحف والمطابع والجمعيات والأحزاب ، وتوالى صدور التأليف إلى حد بعيد .

وأما في ولاية سورية ، حيث كان النشاط الأجنبي ضئيلا ، فقد كانت عناية الحكومة بالتعليم محدودة ، وكانت الدراسة لاتزال تدور حول محور العلوم الآلية واللسانية والدينية ، ماعدا طبقة من بعض أعيان المسلمين ، زاولوا الوظائف ، فكانوا يتخرجون من مدارس الأستانة العالية ، فينشئون وكأنهم ليسوا من صميم الشعب ، يضاف إليهم بعض أبناء الأسر من مسلمين ومسيحيين ، تخرجوا في المدارس بلبنان ، ومنهم جبرائيل دلال الحلبي (ت ١٨٩٩) ، وعزت باشا العابد ، ومصطفى باشا العابد (ت ١٩٢٥) ، فقد تخرجوا في يسوعية عنطورا ؛ ورزق الله حسون الحلبي (ت ١٨٨٠) ، تفقه في دير بزمار الأرمني . وبينما هم على هذا الحال إذا بنفر من المصلحين يتقدمهم الشيخ طاهر الجزائري (ت ١٩٢٠) ينهضون لخدمة نشر العلم ، فسعوا لإنشاء المدارس الابتدائية والحكومية ، للذكور وللإناث ، واشترك الشيخ طاهر في تأسيس ثانوية دمشق ، وجدد في هذه المدينة دار الكتب الظاهرية ، ثم دار الكتب الخالدية بالقدس ، وألف الكتب المدرسية .

وكان إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ بمثابة نقطة انطلاق لنشاط عام ، أدى في الساحل والداخل إلى إقبال على المعارف لاعهد لليهود به ، إقبال صاحب الوعي القومي حتى آخر عهد العثمانيين ، واستمد منه القوة ، ثم استمر هذا النشاط الأدبي يتمشى جنبا إلى جنب مع الجهاد للاستقلال ، خلال الانتداب الفرنسي ، مندفعاً إلى الأمام بحموية جبارة ، انبثقت عن الاستقلال القصير ، الذي تمتعت به سورية في عهد الملك فيصل الأول .

هذا ، ولما أعلن الدستور العثماني ، صدرت في سورية الصحف السياسية ، والمجلات العلمية ، وبدى بإيفاد بعوث الطلبة إلى أوربة ، وأنشئت في الحواضر الكبرى مدارس ثانوية حكومية ، تعلم العلوم بالعربية ، إلى جانب المدارس الثانوية ، التي استمرت تعلم باللغة التركية . ولكن هذا العهد الحر لم يكن طويل الأمد ، لأن الاتحاديين الذين استبدوا بالسلطنة بعد الدستور ، لم

يلبثوا أن عمدوا إلى سياسة تترك العناصر ، فكموا الأفواه ، وضيقوا على الحريات ، ثم جاءت الحرب العالمية الأولى بويلاتها ، وكان جمال باشا خلالها كسيف ديموقليس ، مسلطا فوق رأس كل مفكر . فوقفت من جراء ذلك عجلة الثقافة ، في بلاد عانت من مصائب هذه الحرب مالم يعانه قطر آخر . ولا سيما لبنان . ولا بدع في ذلك ، فقد كنا خلالها ، ندفن الأوراق تحت الأرض ، أو نحرقها ونمزق الكتب ، خشية أن يكون فيها ما يديننا أمام المحكمة العالية العسكرية .

م — تطور العراق الثقافي :

العراق ذلك القطر الشقيق الذي احتضن حضارة العباسيين الزاهرة ، انقلب من بعدهم إلى بلاد أقرب إلى البداوة منها إلى الحضارة ؛ فقد زهد فيه أهله من جراء توالى الفتن ، فهجروه ، واستحكمت الأمية بين المتخلفين منهم ، فغمزت الرافدين موجة من الجهل ، لها أول وليس لها آخر .

غير أن هذه الظلمات التي شملت العراق خلال الحكم العثماني ، كانت تخترقها أشعة أنوار من العلم ، تصدر عن جانب المقامات المقدسة ، ذلك أن مدارس النجف الأشرف ، والكاظمية ، وكر بلا ، والحلة ، وسامرا ، كانت لا تبرح عامرة بعشرات الألوف من طلبة العلم والدين ، وكان هؤلاء يتلقون مع دروس الفقه والتشريع ، دروسا في اللغة العربية وآدابها والتاريخ وغيرها ، فيضيئون بمعارفهم سبل ذلك العهد الأسود ؛ يرافقهم زملاء لهم تخرجوا في بغداد والموصل ، في المعاهد الدينية الأخرى ، وأتقنوا أيضا الآداب العربية .

وقد أشاد بعض المؤرخين بالازدهار الذي أصاب البصرة إبان حكم علي باشا إفراسياب ، منذ سنة ١٦٢٤ م ، وبالغوا حتى شبهوا ذلك العهد بأيام هارون الرشيد . كما أنهم أشاروا إلى ظواهر تقدم على برزت

في بغداد منذ صدر القرن الثامن عشر ، وذلك إبان حكم داود باشا آخر المماليك .

هذا ، ولما استتب الأمر للسلطان محمود الثاني (١٨٠٩ - ١٨٨٩ م) بعد الفتك بالإنكشارية ، وأنشأ المدارس العالية في العاصمة ، كما ذكرنا في البحث السابق ، حجب إلى بعض الأسر العراقية إيفاد أبنائهم إلى تلك المعاهد ، تأهباً لخدمة الدولة ، في الوظائف العسكرية والمدنية . ثم عمد السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ - ١٨٦١ م) إلى نشر المعارف في أمهات الولايات ، فأنشئت في العراق المدارس المعروفة بالرشدية والإعدادية والعسكرية ، وبرغم أن الغاية من تلك المدارس كانت تخرج طبقة من الضباط والموظفين ، وبرغم أنها كانت تحرص على نشر اللغة التركية دون العربية ، حتى إنها تمنع التكلم باللغة العربية بين جدران المدرسة ، كونت طبقة من الشبان مثقفة ، كانوا إلى جانب خريجي المعاهد الدينية أهل الفكر والرأى في بلاد الرافدين .

وقد أنجبت الموصل في تلك الحقبة كثيراً من الأدباء والعلماء ، نذكر منهم ابن الصباغ (ت ١٨٥٤) ، وعبد الباقي العمري (ت ١٨٦٢) ، وعبد الغفار الأخرس (ت ١٨٧٣) ، وهو أشهرهم ، كما أنجبت بغداد المؤرخ شهاب الدين الألوسي (ت ١٨٥٤ م) وغيره .

ثم رأت ولاية بغداد في أيام مدحت باشا ، والتيها منذ سنة ١٨٦٩ ، عهداً مليئاً بالنشاط ، ليس في صعيد المعارف فحسب ، بل في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية كذلك . ذلك أن هذا الوالي عرف كيف يستثمر عطف السلطان عبد العزيز على الإصلاح ، ففضى في هذه السبيل إلى الأمام ، ونشر المدارس الابتدائية في الأقضية العراقية ، وأنشأ مدرسة ثانوية في بغداد ، وفتح مطبعة كانت تصدر جريدة رسمية ، أسماها الزوراء .

ولكن هذه المدارس كانت تنشئ طلاباً أتراكاً في اللسان ، أتراكاً في الاتجاه ، بعدوا عن قومهم بعداً كثيراً ، في المستوى الاجتماعي ، وفي الشعور القومي . وقد توخت دائرة المعارف الإنكليزية التي صدرت أواخر الحكم العثماني الإشارة إلى هذا ، حيث قالت في الكلام عن العراق : «تقدر المسافة التي تقدمتها سورية علمياً بالنسبة للعراق ، بنحو نصف قرن ، وربما كان مصدر ذلك ، الوعي القومي البارز في بلاد الشام . وأما العراقيون فما كانوا يابهون للقومية قط ، بل كانوا قليلي المبالاة باستعمال اللغة العربية في أعمال الحكومة ، على رغم أن تركية اضطرت من جراء ثورات اليمن المتعاقبة ، إلى التصريح بأن اللغة العربية هي لغة رسمية . غير أن العراق وإن شهد بعد مدحت باشا حقبة رجعية في المعارف ، سببها إهمال الحكومة ، كان له بعض العوض وقتئذ بالمدارس الكثيرة ، التي افتتحتها الإرساليات الدينية الأوربية ، التي تسربت إليه منذ القرن التاسع عشر ، بطريق خليج فارس ، فأنشأت في أمهات المدن المدارس على اختلاف درجاتها ، ووجهت التعليم هناك توجيهاً حديثاً ، ساعد على بث الشعور القومي . أضف إلى ذلك أن هذا التدخل الأجنبي كان حافزاً للمدارس الدينية القديمة ، على الأخذ بطرق الإصلاح ؛ كما أنه كان حافزاً للأهلين ، على إنشاء بعض المدارس على النسق الحديث .

وقد حفلت بلاد الرافدين في ذلك الوقت بنخبة من العلماء والأدباء ، نذكر منهم محمد سعيد الجبوبي ، والشيخ عبد المحسن الكاظمي ، وجميل صدقي الزهاوي ، ومحمود شكري الألوسي .

ودخل العراق فجأة في مرحلة من مراحل النهضة ، حينما أعلن الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ . وما كان مرد ذلك إلى انتشار الصحافة ، وتأسيس الأندية والأحزاب والجمعيات وافتتاح المدارس فحسب ، بل كان النقاش بين العرب والترك في صدد الحقوق والواجبات ، ذلك النقاش الذي بدأ

في المجلس النيابي بالآستانة ، ثم انتقل إلى الأوساط الشعبية في الأمصار العربية - كان مثارا للإقبال على الصحف والمدارس على السواء ، فارتقت لغة الكتابة ، وتكاثر عدد المجددين في الشعر ، فلهج نجم معروف الرصافي ، ومحمد رضا الشيباني ، والدكتور محمد مهدي البصير ، ومحمد باقر الشيباني ، وأحمد الصافي .

غير أن هذا الازدهار الوقتي لم يكن يقوم في الواقع على أسس ثابتة ، ذلك أن العراق على اتساع أطرافه ، كان لا يزال حافلا بالأمية . وقد قدر مستر لونسكرك نسبة المتعلمين في مدن العراق سنة ١٨٥٠ بنصف في المئة فقط ، وأضاف إلى ذلك قوله : « إن هذه النسبة لم تبلغ سنة ١٩٠٠ أكثر من خمسة إلى عشرة في المئة » .

ولعمري إن بلادا ما كانت يوجد فيها أكثر من عشرة في المئة من المتعلمين ، كانت بلادا لا تبرح تعتبر متأخرة ، وخصوصا إذا علمنا أن إحصاء الحكومة الرسمي لعام ١٩١٣ يعلن أنه لم يكن في العراق لغاية تلك السنة أوفر من مائة وستين مدرسة ، لا يتجاوز عدد طلابها ستة آلاف تلميذ ومع ذلك ، إن الحرب العالمية الأولى ، لم تبق على هذا العدد الضئيل من المدارس ، بل أقفلت ، وأفل معها حظ آل عثمان في بلاد الرافدين .

ن - تطور جزيرة العرب ثقافيا في عهد آل عثمان :

درست معالم العمران ، في مهد عدنان وقحطان ، قبيل دخوله في حوزة آل عثمان ، فتضاءل العلم فيه ، وأصبح مقصورا على العلوم الدينية ، والآداب العربية ، وهو إلى ذلك محدود المدى ، غريب في بيئات تغلب عليها الأمية .

وكان طلبة العلم في نجد واليمن والحجاز وغيرها ، إذا أرادوا أن يتفقهوا في الدين ، وأن يتضلّعوا في الآداب ، زيادة على ما عندهم ، أموا أزهر مصر ،

وقضوا فيه السنين الطوال . ثم متى عادوا إلى أوطانهم تطلع إليهم الشعب ، بتقدير أشد مما يتطلع الناس اليوم إلى العائدين من جامعات أوربة وأميركا ، الحاملين شهادات الدكتوراة وسائر الدرجات العالية .

واستنادا إلى هذه الثقة العظيمة ، التي كان يتمتع بها طلاب الأزهر وغيره من المعاهد الإسلامية عند أبناء جزيرة العرب ، كان هؤلاء المغتربون في سبيل طلب العلم ، أكثر حولا من سواهم في صدد القيام بالإصلاح ، وفي الانقلابات السياسية . من ذلك أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، الذي ينسب إليه المذهب الوهابي في نجد ، كان قد طلب العلم في بغداد والبصرة ؛ كما أن السيد محمد علي الإدريسي ، منشىء حكومة الإدارة في عسير اليمن ، كان خريج الأزهر .

وقد نوهت دائرة معارف البستاني بأسماء ثلاثة من العلماء الأعلام ، كانوا ينسبون إلى الحجاز ، اشتهروا في القرنين السادس عشر والسابع عشر . وهم القاضى إسماعيل بن عبد الحق ، والشاعر عبد الحق بن محمد ، والمؤلف الواعظ القلقشندي . وكان من مشاهير علماء اليمن في أواخر القرن التاسع عشر ، السيد محمد مرتضى الزبيدي اليمنى (ت ١٢٠٥ هـ = ١٧٩٠) .

هذا ، ولما صح عزم السلطنة العثمانية على إنشاء المدارس الحكومية في الولايات ، كما أسلفنا ، أصاب الحجاز ، ولاسيما مكة والمدينة ، شيء من هذا الحظ ؛ فقامت فيه المدارس الابتدائية والثانوية والعسكرية ، ومدرسة دار الفنون في المدينة ؛ فكانت هذه المدارس مصدرا لانتشار بعض العلوم الرياضية والطبيعية ، فضلا عن بعض اللغات ، ولاسيما التركية والفارسية . وشاء السلطان عبد الحميد الثانى (١٨٧٦ - ١٩٠٩) ، عملا بسياسته الإسلامية ، تقريب جزيرة العرب إليه ، ففتح أبواب مدرسة العشائر في الآستانة لأولادهم ، فدخلها نفر منهم من أبناء الخاصة ، ولكنهم قلما أفادوا بلادهم .

وقد زار الشيخ محمد بيرم التونسي (ت ١٨٨٩) الحجاز ، فوصف في كتابه « مستودع الأخبار » ركود المعارف في تلك البلاد ، وانتشار الأمية ، ثم قال : « وفي هاته المدة الأخيرة أنشأ بعض الهنود بوساطة الشيخ رحمه الله ، مؤلف كتاب « إظهار الحق » ، مدرسة بمكة المشرفة ، يقرأ بها الشيخ رحمه الله المذكور ومن معه من العلماء المجاورين ، بعض دروس في الهيئة والجغرافيا والطب ، وبعض علوم أخرى رياضية ، وعلم التصوف » . وخلص الشيخ محمد بيرم من ذلك إلى التنويه بالطريقة السنوسية هناك ، وبما كان لانتشارها بين القبائل من الأثر البالغ في صلاح حالهم ، في الناحيتين الدينية والأخلاقية . هذا ، واشتهر في تلك الحقبة المؤرخ أحمد زيني دحلان (ت ١٨٨٦) ، وهو من أهالي مكة .

وفي سنة ١٩٠٨ قام الحاج محمد زيني رضا ، وهو من أثرياء الحجاز ، بتأسيس مدرسة نظامية في جدة ، خدمة لأبناء وطنه ، ولكن هؤلاء الناس كانوا على تأخر بلغ منه أنه كان حافزا لهم على انتقاد هذا المحسن ، زاعمين أنه ينفق الأموال فيما لا يفيد .

بيد أنه لم يحفل بحملاتهم عليه ، بل ظل ثابتا على مشروعه ، حتى أصبح قريب النجاح ؛ ولما انتشر خبره في جزيرة العرب ، اقتدى به أهل الكويت سنة ١٩١٣ ، والبحرين وسواهما من سواحل الجزيرة .

وأما في اليمن الخضراء ، فإن المدارس من ملكية وعسكرية انتشرت ، أثناء حكم السلطان عبد الحميد الثاني ، في جميع الألوية ، وكانت الملكية على ثلاثة أقسام : ابتدائية ، ورشدية ، وإعدادية ، ومدة الدراسة في الابتدائية ثلاث سنين ، وموادها الأمور الدينية ، والخط ، والحساب . وهي تدرس بالعربية ؛ وكذلك مدة الدراسة في الرشدية ثلاث سنين ، وتشمل الهندسة والتاريخ والجغرافيا والطبيعات . وأما الرشدية فمدتها سنتان ، وفيها شيء من العلوم العالية ، واللغات التركية والفارسية ، بالإضافة إلى العربية . وكانت لغة

التعليم ، في الرشدية والإعدادية ، كما في العسكرية ، اللغة التركية . والناجحون من خريجي هذه المدارس كانوا يوفدون إلى العاصمة ، لاستكمال علومهم . ولا يزال ، حتى الآن ، في اليمن كثيرون من خريجي هذه المدارس ، في وظائف حكومة صنعاء العسكرية والمدنية ، ولا سيما الدوائر المالية ؛ وهم يتكلمون التركية بسهولة .

س — التطور الثقافي في المغرب :

نشأت السلطنة العثمانية في مطلع القرن الرابع عشر حين كانت وفود المهاجرين من مسلمي الأندلس ، أخذت تنزل في الشمال الأفريقي منذ جيل سابق ، فرارا من ظلم الأسبان ؛ وبينهم طبقة من العلماء والصناع والزراع . وقد كسب المغرب بهم ، ولا سيما سبتة وبجاية وتلمسان ، كسبا موفورا ؛ وكما أنجبت سبتة الشريف الإدريسي العالم الجغرافي ، نعمت فاس بلسان الدين بن الخطيب ، الوزير الغرناطي صاحب المصنفات (ت ١٣٧٤ م) .

ولما سقطت غرناطة (٥٨٩٧ هـ = ١٤٩٢ م) وهي المعقل الأخير للمسلمين في الأندلس ، أخذ هؤلاء ينتشرون في عدوة المغرب وما بعدها ، مدة قرن وربع قرن ، حتى إذا أصدرت أسبانيا ذلك الأمر الشاذ ، الذي خيرت فيه المتخلفين في بلادها من المسلمين بين التنصر والجلاء (١٠١٨ هـ = ١٦١٠ م) أصبحت الهجرة تكاد تكون عامة .

— وإلى أين يذهبون ؟ ..

إنهم لم ينتشروا في شمالي إفريقية ومصر فحسب ، بل ساقط بعضهم الأقدار إلى تركيا وبلاد الشام .

وكانت تونس قد أصبحت محط الأنظار منذ أن قامت فيها دولة بني حفص أواخر القرن العاشر . وقد التف حول عاهلها أبي زكريا الأول (١٢٢٨ — ١٢٤٩ م) العلماء والشعراء ، فأما اللاجئون وفيهم أهل العلم ،

وفيهما أصحاب الصنائع ، وكان من نتيجة ذلك ، أنه برغم ما أصاب تونس بعد من اضطراب في الناحية السياسية وفوضى الأحكام ، ظلت تتمتع بالازدهار في الناحية الأدبية . وقد أشار إلى ذلك أرنور بليكرين بقوله : « إن الذين خلفوا المولى أبي فارس على العرش ، وشهدوا ذلك العهد المضطرب ، كانوا هم أنفسهم فنانون وأدباء » .

ولكن ابن خلدون يذهب في مقدمته التي كتبت أواخر القرن الرابع عشر ، مذهبا آخر ، فيشكو من حال المسلمين سواء أكانوا في الأندلس أم في عدوة المغرب .

ولقد وصف هذا المؤرخ معاصريه الأندلسيين ، الذين عاصروا أواخر أيام بني الأحمر ، بقوله : « وأما أهل الأندلس فذهب رسم التعليم من بينهم ، وذهبت عنايتهم بالعلوم ، لتناقص عمران المسلمين بها منذ مئتين من السنين ، ولم يبق من رسم العلم فيهم إلا فن العريية والأدب ، اقتصروا عليه ، وانخفض سند تعليمه بينهم ، فانخفض بحفظه ، وأما الفقه بينهم فرسم خلو ، وأثر بعد عين ، وأما العقليات فلا أثر ولا عين ، وما ذاك إلا لانقطاع سند التعليم فيها بتناقص العمران ، وتغلب العدو على عامتها إلا قليلا بسيف البحر ، شغلهم بمعاشهم أكثر من شغلهم بما بعدها » .

ثم لما تطرق ابن خلدون لأهل المغرب قال : « فاعلم أن سند تعليم العلم لهذا العهد قد كاد ينقطع عن أهل المغرب ، باختلال عمرانهم ، وتناقص الدول فيه ، وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع وفقدانها ، كما مر ، وذلك أن القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب والأندلس ، واستبحر عمرانهما ؛ وكان فيهما للعلوم والصنائع أسواق نافقة ، وبحور زاخرة ، ورسوخ فيهما التعليم ، لامتداد عصورهما ، وما كان فيهما من الحضارة ، فلما خربتا انقطع التعليم من المغرب إلا قليلا كان في دولة الموحدين بمراكش » .

وبعد، فكيف نوفق بين قول ابن خلدون الذى ينتقص أحوال المسلمين بالمغرب عليا وفنيا فى عهده ، وبين أقوال بعض مؤرخى الإفرنج الذين ينزهون بشيء من الازدهار الأدبى، كان لا يزال يتمتع به أولئك المسلمون، فى العهد الذى نشأت فيه السلطنة العثمانية ؟

الجواب عن ذلك أن ابن خلدون كان يقارن بين ذلك العهد المضطرب، وبين ما يعرفه من ازدهار العلم والفن فى عصر المسلمين الذهبى ، فيشكو من الانحطاط ؛ على حين أن مؤرخى الفرنجة كانوا يلقون عند مسلمى تلك الحقبة تراثا من حضارة لا يزال براقا، بالنسبة لما كانت عليه أوربة وقتئذ من الظلمة .

هذا فضلا عن أن الشمال الأفريقى قد أصاب حظا من الازدهار الأدبى بمصر، من جراء انتشار مهاجرى الأندلس فى أرجائه، كما قدمنا . وإذا كان ذلك الازدهار سخابة صيف، فلعل ابن خلدون لم يأخذه بعين الاعتبار .

مراكش :

الواقع أن العلوم الدينية كانت لا تزال تحتفظ بمكانتها فى جميع إفريقية الشمالية ، وأما فى مراكش فقد كنت لا تجد بلدة فيها خالية من الدروس الدينية ، ومن علماء الفقه ، وأدباء يحفظون الدواوين الشعرية ، والمقامات الحبرية .

وكانت جامعة مسجد القرويين بفاس ، هى المرجع لمن أراد التوسع فى العلوم الدينية واللسانية وغيرها ، يؤمونها من كل صوب ، مثلها يؤمون الأزهر فى مصر، وجامعة مسجد الزيتونة فى تونس الخضراء . وكانت الطبابة والرياضيات تدرس فى هذه الجامعة فى عهد ازدهارها ، إلا أنها سبقت الدروس الأخرى إلى الانحلال خلال القرن التاسع عشر ، ثم لم يبق منها إلا دروس التوقيت .

وبلغ اهتمام المراكشيين بالتفقه في الدين ، حدا جعل التقاليد المرعية توجب على الأسرة المالكة التضلع في الشؤون الإسلامية ، فضلا عن غيرهم من المتأهبين للناصب الكبرى .

هذا إلى أن المراكشيين احتفظوا أيضا بالإنشاء وصحته ، أشار إلى ذلك الشيخ محمد بيرم التونسي (ت ١٨٨٩) في كتابه « صفوة الاعتبار » حيث قال : « ولعمري إن صناعة الإنشاء في الدول باللغة العربية ، كادت الآن أن تكون مقصورة على دولة مراكش . وأما غيرها من الدول العربية فقد تذبذبوا ، وكادت كتاباتهم أن تخرج عن الأسلوب العربي » .

وأراد السلطان مولاي حسن أن يتشبه ، أواخر القرن التاسع عشر ، بمحمد علي باشا مؤسس الأسرة العلوية في أوائل ذلك القرن ، فساقه اهتمامه هذا لتنظيم الجيش ، وإنشاء بعض المدارس ، وإرسال البحوث العلمية إلى فرنسا وألمانيا ، في سبيل طلب العلوم الرياضية والحربية ، وكان بعض تلك المدارس لا يقتصر على العلوم الدينية والأدبية ، وإنما يتعداها إلى تدريس الطب والصيدلة والطبيعات والعلوم الرياضية ؛ كما أن جمعية الأليانس الإسرائيلية فتحت وقتئذ بعض المدارس في المملكة المراكشية ؛ ومن أشهر في ذلك العهد المؤرخ أحمد الناصري السلاوي المتوفى سنة ١٨٩٧ .

وهم كذلك فإذا بالاستعمار الفرنسي يسطر جناحيه على البلاد ، ويعتمد في التعليم والتربية على السياسة الاستعمارية ، التي جرى عليها من قبل في الجزائر وتونس ؛ ومن المعلوم أن هدف هذه السياسة إنما هو المحافظة على الأمية والجهل ، احتفاظا بالسيطرة المؤبدة على شعوب المغرب العربي . وقد صرح بعض المسؤولين الفرنسيين في مراكش ، بأن لا فائدة

البتة من تعليم العرب ، كما أن المرشال ليوتي الذي كان مقما عاما قال :

(١) يجب أن تكون المدارس الموجودة في مراكش فرنسية الروح والغاية .

(٢) إنه ليست لنا أية فائدة من تدريس اللغة العربية ؛ ويجب أن تهدف سياستنا إلى إبعاد القبائل العربية عن تعلم أبنائها اللغة العربية، التي لن نجنى من ورائها خيرا .

وعلى ضوء هذه المبادئ، فسحت حكومة الاحتلال المجال للإرساليات الدينية ، وأجزلت العطاء لها ، ووضعت العراقيل في وجه مدرسي العلوم الإسلامية والعربية ، وضيقوا على الفقهاء ورجال الطرق ، وهم في أواسط إفريقية الشمالية المدرسون والمربون الذين كان لهم الفضل الكثير في الحد من جهل القبائل .

وأما المدارس الحكومية التي فتحتها الإدارة الفرنسية ، فكانت جد قليلة؛ ذكر أندره ليختنبرجر A. Leichtenberger أن عددها سنة ١٩١٢ كان يبلغ ٣٧ مدرسة فقط ، فيها ثلاثة آلاف تلميذ ، ثم ازداد عددها فأصبح سنة ١٩١٧ يبلغ ١٨٠ مدرسة ، فيها عشرون ألف تلميذ خصب . ومع ذلك لم يكن بين هؤلاء التلاميذ إلا عدد قليل من المسلمين ، لأن صلابة هؤلاء القومية والدينية ، كانت تحول بينهم وبين الإقبال على مدارس الاستعمار ، وهي تحارب دينهم وقوميتهم .

ف — تونس :

كان جامع الزيتونة بتونس ، الذي يرجع تأسيسه إلى القرن السابع الميلادي ، كجامع الأزهر بمصر ، المورد العذب لطلاب العلوم الدينية ، والآداب العربية في المغرب ، حتى إذا تبعت إيالة تونس تركية ، وتوالى تعيين قضاتها من الآستانة ، وبعض الموظفين من خريجي المدارس العليا في العاصمة ، كان هؤلاء مصدرا لنهضة علمية جديدة في البلاد التونسية ، خرجت عن نطاق رجال الدين ، إلى أوساط الطبقات العليا الشعبية . ثم غمرت الشرق الإسلامي موجة من اليقظة ، أصبحت ظاهرة للعيان منذ أواسط القرن

التاسع عشر . بدأت في مصر ، ثم امتدت ، فشملت سائر الأمصار ، وفي جملتها تونس ، وقد صاحبها تطلع عام إلى التجديد ، ورغبة في الإصلاحات المدنية الحديثة ، ولا سيما في الناحية الثقافية .

وترجع هذه اليقظة إلى عهد الحملة النابليونية على وادي النيل ، وما أعقبها من تجديد قامت به الأسرة العلوية ، على أساس المشروعات والتصميمات التي وضعها تلك الحملة .

لذلك ، لم تعد تونس تستسيغ الوقوف عند حد الإصلاح الذي أدخلته وقتئذ على منهج التعليم في الجامعة الزيتونية ، بل خفت إلى إنشاء المدارس الحديثة ، وعلى رأسها المدرسة الصادقية ، التي كانت تدرس اللغات الأجنبية مع اللغة العربية ، وأخذت ترسل البعثات إلى البلاد الأوربية ، للتخصص في جامعاتها ، حين قامت دور الطباعة فيها لنشر الكتب والصحف . وقد نوه الشيخ محمد بيرم التونسي المشار إليه ، في أثناء كلامه عن المعارف في وطنه ، بجامعتي الزيتونة والقيروان ، وبمدارس السيد أبي زمعة الأنصاري ، في جوار ضريحه ، وأشار إلى وجود مدارس قليلة في عصره ، وكتاتيب لأهل البلاد ، ومدارس غيرها للأجانب ، ذكرا أن المدرسة الصادقية التابعة للحكومة ، كان يدرس فيها العلوم العقلية والرياضية ، فضلا عن بعض دروس كانت تلقى في المساجد ، وفي بعض زوايا الصالحين بين القبائل .

هذا ؛ وقد اشتهر في تلك الحقبة الشاعر الكبير محمود قبادو (ت ١٨٦٨ م) ، والشاعر الأديب سليمان الحراثي (ت ١٨٧٠) يعاصرهما الشيخ محمد بيرم (ت ١٨٨٩) وخير الدين باشا (ت ١٨٩٠) .

وخلال ذلك احتل الفرنسيون تونس (١٨٨١) ، وكان دأبهم محاربة اللغة العربية ، لإحلال لغة فيكتور هيكو محلها ، لقطع صلة تونس بماضيها . وفي سنة ١٨٨٣ أسست حكومة الاحتلال « إدارة العلوم والمعارف » ، ووضعت برنامجا لإنشاء مدارس ابتدائية فرنسية ، على غرار مدارس فرنسا

يؤمها الأطفال ، سواء كانوا تونسيين أو من الجاليات الأجنبية ، لينشئوا
نشأة فرنسية صرفة .

ولم يكن للغة العربية أى حظ في هذه المدارس . ولكن العرب لم
يسكتوا عنها ، وقاطعوها ، إلى أن أجبروا السلطة الفرنسية على إدخال اللغة
العربية في المدارس الابتدائية المعدة للعرب وحدهم ، وكانت تسمى
« المدارس العربية الفرنسية » . ومع ذلك اعتبرت السلطة لغة البلاد من
المواد الاختيارية في الامتحانات ، قصد إهمالها ، وعملت بذلك على صرف
الطلبة عنها ، إلى الاهتمام باللغة الفرنسية فقط ، قصد النجاح في تلك الامتحانات ،
والحصول على الشهادات المدرسية .

وأما التعليم الثانوى فظل يقتصر على المدرسة الصادقية . وكانت المدارس
الخصوصية تلاقى مقاومة من قبل الإدارة الفرنسية ، ولم تكن هذه الإدارة
تمنح الرخص لطالبي إنشائها إلا بعد صعوبات تخلفها . كل ذلك كان يقع
حين كانت السلطة تنشط المدارس الحكومية ، القائمة على المناهج الفرنسية ،
وتساعد على نشرها للذكور وللإناث ، ابتدائية وثانوية ، كما أنها أقامت دارا
للمعلمين . والواقع أنه كان إقبال الشعب التونسى على هذه المدارس دون
إقبال الجزائريين على أمثالها ، ومع ذلك كانت كل محاولة حاولتها هذه
المؤسسات الفرنسية ، لحط شأن القومية العربية ، كصرخة في واد ، يسمع
ضجيجها ، دون أن يكون لها أثر فعال .

ص — الجزائر :

يصدق على الجزائر إبان الاحتلال العثمانى ما أوردناه عن مراکش
وتونس ، من حيث تضائل التعليم وقتئذ ، واقتصاره على الدروس الدينية
والعربية . ولكن الجزائر منيت بالاحتلال الفرنسى منذ أكثر من قرن
(١٨٣٠م) ، فأمنت فريسة للاستعمار ، الذى استفاد كثيرا من طول الزمن .

فالفرنسيون الذين تعرضوا لدين الجزائريين وللغتهم، باللجوء إلى أساليب تقضى إلى إضعاف كل منها مباشرة ، أو غير مباشرة، تمكنوا من فرنسة تلك البلاد العربية أكثر من أى قطر آخر .

وهنا ننقل عن كتابنا « قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور » العبارة التالية : « هذا إلى أن المستعمرين كانوا فى الوقت الذى يضيّقون فيه على التعليم الوطنى ، يجرون معظم مخصصات المعارف على مدارس المبشرين والفرنسيين ، وفى جملتهم اليهود ظهراء الاستعمار .

« ومن جراء هذه السياسة تأخرت المعارف عقب الاحتلال وذبلت ، بعد أن كانت زاهية زاهرة ، ويستشهد الجزائريون على صحة ذلك بقولهم : إن ٢٢٢ مدرسة كانت موجودة فى مدينة الجزائر وحدها قبل الفرنسيين ، وقد أغلقت بفضل رسالة الحضارة والتدين » .

والواقع أننا قد رأينا بأأم العين نماذج من تلك الطبقة التى خلقتها سياسة الاستعمار بالجزائر ، مستعينة بالتربية والتعليم .

رأيناها بعد الحرب العالمية الأولى ، إبان احتلال جيوش الحلفاء ولاية بيروت ، إذ كان بعض أفراد الجيش الجزائرى ، وهم مسلمون ، لا يحسنون الكلام بلغة آبائهم ، وهم إلى ذلك كانوا إذا سمعوا المؤذن يدعو إلى الصلاة بلغة القرآن ، يهزءون بالأذان علنا ، ويرجمون المؤذن بالحصى .

ق — التطور الثقافى فى ولاية طرابلس الغرب :

وربما كان تاريخ هذه الولاية فى صعيد العرفان ، يشبه الشبه الكثير التطور الذى حصل فى تونس ، مع الفارق فى النسبة : ازدهار فى إبان الهجرة الأندلسية لشمال إفريقيا ، أعقبه ذبول من جراء استحكام الفوضى ، ثم ازدهار آخر خلال عصر آل القرمنلى الذهبى ، تلاه نهضة موضعية شعبية ، ترجع إلى التماس مع أوربة ، ولكنها نهضة كانت محدودة . هذا إلى أن الإصلاحات

العثمانية التي بدأت منذ السلطان محمود الثاني ، وتحققت أيام السلاطين عبد المجيد وعبد العزيز وعبد الحميد ، طوال القرن التاسع عشر ، هذه الإصلاحات لم تلبث أن شملت ولاية طرابلس الغرب ، فأنشأت فيها طبقة شعبية متعلمة . وقامت فيها المدارس الرشدية والإعدادية والعسكرية ، أسوة بسائر الولايات العثمانية ، التي عملت على إنشاء العلوم الطبيعية والرياضية واللغات الأجنبية . وإلى ذلك ظل شمالي أفريقيا محتفظا بالعلوم الدينية ، والآداب العربية ، على وجه عام ، ولانستثنى من ذلك داخلية الجزائر وتونس ومراكش وليبيا . ويرجع الفضل في نشر هذه العلوم ، في الصحراء الكبرى وما حولها ، إلى مؤسسات دينية كانت على تنظيم كثير لا توجد أمثاله في أى قطر آخر ؛ تلك هى الطرق الصوفية ذات الزوايا المنتشرة حتى فى أقاصى الواحات . ونخص بالذكر منها الطريقة السنوسية فى ولاية طرابلس الغرب ، وهى ذات تنظيم حكيم ، جعل زواياها الكثيرة حافلة بجيوش المريدين ؛ وكانت لهم ولمن جاورهم أفضل معهد للتهديب والتربية . وبما لمشائخ الطرق من النفوذ الشخصى على مريديهم ، ذلك النفوذ الذى لا مثيل له عند سائر المدرسين والمربين فى العالم الراقى ، استطاعت الشعوب البدائية المنتشرة فى داخلية ليبيا ، وسائر أواسط إفريقيا الإسلامية ، أن تعرف شيئا كثيرا من الآداب الدينية ، وقليلًا من أصول الدين ، فقدمت أخلاقها ، ورقت إلى حدٍّ ما طباعها البدوية .